سهرت منه الليالي

وهيبة قويّة

معرض الكتاب 1989

بقلم

علي الدوعاجي

الطبعة الثالثة عشرة

الدار التونسية للنشر

الدوعـاجي (علـي)
ـ سهرت منه الليـالـي . ط . 13 ـ تونـس :
الدار التونسية للنشـر ،التونسية للطباعة وفنون الرسم
1987 . 21 سم ، 135 ص .
رقم الايـداع القانونـي بدار الكتب الوطنـية
383 ـ نوفمبر 1987

مقدمة

تفيض هذه المجموعة القصصية بروح الدوعاجى الفنية التى تتبدى فيها الوان من الواقع الشعبى فى رقة تعبير وبراعة خيال ، فلم ينفك الدوعاجى يكرع من أيام شقوته وفنه الى ان التحم بصميم مشاغل الناس وتطلّع لهم فى الاحياء الشعبية فكتب (أدبا كبيرا) يتسم بجمال التعبير ونفاذه وبراعة الصور وتألقهـا .

لهـذا رأينا اعادة نشر هذه المجموعة تعميما للفائدة واحياء لذكرى أديب كبير .

الدار التونسية للنشر

تقديم : عز الدين المدني

على الدوعاجي الكاتب البائر !...

يجد الدارس الجامع لما خلفه على الدوعاجى من أدب وقصة ومسرح وشعر عقبات كثيرة وكبيرة تصده عن سبيله ، ذلك ان أدبه مشتت ومبعثر فى المجلات والصحف وحتى النشريات التى صدرت خلال الثلث الثانى من هذا القرن بتونس ، ولأن انتاجه المخطوط كالمسرحيات وبعض القصص وعدد من الرسائل ما زال كذلك فى ملك عدد من أصدقائه الذين ما يزالون على قيد الحياة ... فكأنك تبحث عن انتاج أدبى مجهول لأديب غريب عاش فى القرون الوسطى وفى بلاد غير بلادنا ! إذ ان على الدوعاجى قد توفى منذ عقدين فقط ! (1) ...

وهذا الكتاب الذى يسر « نادى القصة » ويتشرف بتقديمه اليوم الى حضرات القراء يتضمن ما استطعنا التوصل الى جمعه ونشره من قصص مؤلفنا ، يقينا منا بأن هذا السفر هو مساهمة متواضعة فى التعريف بعلى الدوعاجى الذى قاسى مرارة « الغلبة » وضيق البوار ومحنة الغبن طوال حياته ، وفى ان يتبوأ على الدوعاجى المكانة اللائقة به فى الادب التونسى الحديث خاصة والعربى المعاصر عامة .

---

(1) يقول الدكتور غازى ان له رواية عنوانها : « شارع الاقدام المخضبة » فمن هو الذى يملك هذه الرواية المخطوطة ؟
(انظر قصص العرب المعاصرين) منشورات الديوان التربوى سنة 1960 ص 216 .

ونحن لم نتجشم بعض الصعاب لو لم ندرك اهمية هذا الكاتب القصصي وقيمة انتاجه • وفعلا ، فان الدارس النزيه الذى يبحث فى شؤون الادب التونسى المعاصر يتبيّن بوضوح وجلاء أن علي الدوعاجي هو الكاتب القصصي الوحيد الذى يمثل التمثيل الصحيح ـ فنا ومعنى ـ المجتمع الشعبى التونسى فى الثلث الثانى من القرن العشرين ، وهو حامل مشعل الادب في تونس بعد أبى القاسم الشابى ، وهو « أبو القصة التونسية » (1) الحديثة بلا منازع ! •••

* * *

ولد علي الدوعاجي بحاضرة تونس سنة 1909 وتوفى بها سنة 1949 • وكانت اسرته تنتمى للطبقة البورجوازية الصغيرة • وقد تعلم العربية والفرنسية في المدرسة الإبتدائية • وبعد سنوات من ذلك عمل « قلفة » عند احد كبار تجار الاقمشة بالعاصمة • وكان فى تلك الاثناء يعلم نفسه بنفسه ويمعن فى مطالعة الروايات والدواوين بالفرنسية والعربية • ولم يطق صبرا ، فانقطع عن التجارة ، وصار يتردد على المجالس الفكرية والمقاهى الادبية • وقد اتصل بأبى القاسم الشابى ثم بالطاهر الحداد حسب ما اكده لنا الاستاذ المرحوم محمد الصالح المهيدى • وخالط ادباء عصره لا سيما زين العابدين السنوسى يوم كان يصدر مجلة « العالم الادبى » ، كما عاشر طويلا القصاص محمد العريبى ، والكاتب المسرحى عبد الرزاق كرباكة ، والشاعر مصطفى خريف ، والفنان محمود بيرم التونسى ، والصحافى الهادى العبيدى . والكاتب الاجتماعى عبد العزيز العروى ،

(1) « التجديد » عدد نوفمبر 1962 ـ تونس : الدوعاجي فنان الغلبة الاستاذ توفيق بكار .

و « شاوش الهيئة الاجتماعية » على الجندوبى كما كان يلقب نفسه بذلك ، ومحمد بن فضيلة صاحب صحيفة « الوطن » الهزلية ، وغيرهم من الشعراء والفنانين • وكانوا جميعا يجتمعون بمقهى « تحت السور » بربض باب سويقة الشعبى • وكانوا اخوانا فى « البوهيمية » والادب والفن والفاقة وربما التعاسة ، وباختصار فى « اتراحهم وافراحهم » حسب تعبيره• وقد خلف علي الدوعاجي لوحات مشرقة جدا عن هذا « المجتمع البوهيمى » فى صحيفة « الاسبوع » الاسبوعية (1) تذكرنا كما يقول الدكتور محمد فريد غازى برسوم الفنان عمار فرحات ذات الطابع العفوى الرقيق والملامح الانسانية العميقة (2) •

واكد لنا بعض اصدقائه الادباء : أن علي الدوعاجي كان دائم البشاشة ، ذكيا فطنا ، وصاحب نكتة لاذعة ، ولا يبسط يده ولا يمسكها ، مولعا باللهو ومغرما كذلك بالجد • لا مجال للشك فى هذه الشهادة خصوصا اذا طالعنا قصصه ومقالاته واذا عرفنا انه كان مصورا كاريكاتوريا بارعا (3) •

لقد عاش علي الدوعاجي أعزب طوال حياته ، كعدد من اخوانه فى « البوهيمية » • وقال لنا صديق له عرفه عن كثب : انه كان يحب فتاة يهودية من « حارة » تونس • ولاسباب اجتماعية ونفسانية ، تناول علي الدوعاجي مع عدد من رفاقه المخدرات ، وأمعن فى ذلك كل الامعان حتى تعفنت رئتاه فنقل الى مستشفى « الرابطة » ومات فيه بمرض السل يوم 27 ماى

(1) تحت الصور ـ « الاسبوع » اعداد : 25 و 26 و 28 سنة 1946 .

(2) الانسانية فى القصة التونسية المعاصرة ـ العدد الاول من مجلة « اللغات » .

(3) انظر مثلا صور « جولة حول حانات البحر الابيض المتوسط » نشر « الشركة القومية للنشر والتوزيع » سنة 1962 .

سنة 1949 (1) ٠

لم يعرف على الدوعاجي والده ؛ فلقد توفى أبوه وهو فى الخامسة من عمره ٠ وكان محل عناية وعطف ورقة من قبل والدته التى توفيت بعده ببضع سنوات ٠ وكان على الدوعاجي يعيش عيشة الكفاف والتقشف إن لم تكن حياة الضيق والحرج ، اذ كان مورد رزقه الوحيد هو ما كان يتقاضاه من مال من « الأوقاف » على حساب ميراث خلفه له « الأجداد » ٠

* * *

إنى أحب على الدوعاجي ، لأنه فنان مؤمن بفنه الى حد الهوس ، بل التقديس ، كما كان أبو القاسم الشابى مؤمنا بشعره ، والطاهر الحداد مخلصا لافكاره الاصلاحية وآرائه التحررية ومعتقداته التقدمية ٠ وقد اطلق على الدوعاجي على نفسه اسم « فلاديمة » ذلك العبد الاسود الذى يعاضد العمال فى أشغالهم المرهقة بالترنم والغناء والموسيقى ليسليهم وليخفف عن كواهلهم أثقال الحياة ، وقساوة الشغل واستغلال البورجوازية والمستعمر لهم ٠ « وان ذلك (الترنم) لهو عمل ايضا (2) ! » ٠٠٠

هكذا كان على الدوعاجي يؤمن بفنه ويخلص لادبه ٠ وما احوجنا اليوم الى ان نشاهد الكتّاب والشعراء يؤمنون بفنهم كايمانه ويخلصون له كاخلاصه ٠ وهكذا نرى ايضا ان على الدوعاجي فنان معاصر لنا بكل ما فى هذا التعبير من التجدد والتقدم !٠٠٠

(1) انظر مقال زين العابدين السنوسي فى مجلة « الندوة » .

(2) انظر افتتاحيته التي كتبها في العدد الاول من جريدته الهزلية « السرور » التي اصدرها يوم 30 اوت 1930 .

ويعطينا على الدوعاجي رأيه فى فنه فيقول :

« ان القصة فى حقيقتها صورة صادقة لمنظر شاذ ، وعلى شذوذه هذا لا يستغربه القارئ ولا يستنكره ٠ وان كاتب القصة هو عرض الواقع البحت بكلمات واضحة نيرة ، وان يمسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة ، وعن وصف شعورة الشخصى وعن الوعظ الثقيل (1) » ٠

فهذه هى نظريته الجمالية فى فن القصة التى نجدها مطبقة فى كافة قصصه ولوحاته٠ « فنزهة رائقة » تبدو شاذة للقارئ لما يجد فيها من الصور الكاريكاتورية المتنافرة ومن سلبية مواقف الشخصية الرئيسية فيها ٠ لكنها ليست شاذة فى الحقيقة ، بل هى أنموذج لمجموعة من الشخصيات الناشزة والمواقف المنحرفة ، فلا يستغربها القارئ بعد الانتهاء من مطالعتها ، ولا يستنكر ما جاء فيها من نقد مبطن مضمن !٠٠٠ ضد البورجوازية او الاشخاص الذين يتصنعونها ويتكلفونها ٠

وكأنى بالدكتور محمد فريد غازى قد فطن الى هذه القاعدة القصصية فى فن على الدوعاجي فقال : « انه ادرك جوهر القصة » (2) !

وكأنى كذلك بالاستاذ توفيق بكار قد ادرك معانى ذلك « الشذوذ الفنى القصصى » عند الدوعاجي ، فقال : « فالواقع فى رأى الاديب الحق معدن الادب يقتطع منه الكاتب ـ بعد التخير ـ مادته الخام ثم يقبل على هذه المادة كما يقبل الخزاف على عجينته ، ولا يزال يتدبرها بثاقب فكره تصورا وتصميما

(1) القصة فى الادب المغربى الحديث « الثريا » السنة الثالثة عدد 5 ماي 1946 .

(2) قضية القصة التونسية « الفكر » السنة 4 ـ العدد 7 ـ افريل 1959 .

ويعالجها بخالص فنه تمثيلا وتجسيما حتى يسويها بين .
تحفة أدبية (1) » .

وهذا رأى جمالى كله صحة اذا علمنا ان على الدوعاجى كان يقول بعدم التعليق وبالتجرد والرغبة عن القاء الدروس فى الوعظ . ذلك ان طريقته كانت تعتمد اساسا على استخدام « عين الكاميرا » كما يقول الدكتور محمد فريد غازى (2) على شاكلة الكتاب الأمريكان ؛ واذا علمنا كذلك ان على الدوعاجى كان يبحث دائما عن العقدة ! ...

ولا نحب ان يذهب الظن بالقارىء فيحسب على الدوعاجى مقلدا للطرق الفنية والمناهج الجمالية فى القصة الغربية الفرنسية منها والامريكية ، وغير عارف باختيار الشكل الملائم للمضمون ، ولا مدرك لانتقاء المضمون الضرورى للشكل ، بل كان على الدوعاجى من الادباء العرب القلائل الذين يؤمنون فى زمنه بالتشبع « بروح البحث » فى الميدان الجمالى والمجال المضمونى . وفى هذا المعنى يقول :

« ... اننا بطول الوقت سئمنا (الرسائل الملقاة من الباخرة على الامواج) و (الهروب بعد منتصف الليل الى الجيزة

فى الرولس رويس التى تقطع مائتى كيلومتر فى الساعة) و (ابن العمدة الذى دعا البرنسيس المجرية الى شراب الشاى على مائدته فتبتسم واصابع يدها تعبث بسيقارة تركية) وهذه (الاكليشيات) كما يقولون التى نجدها فى قصص العالمين والتى لو ابدلنا اسماءها الشرقية باسماء غربية لانطبقت

---

(1) « التجديد » السنة الثانية العدد الاول نوفمبر 1962 .
(2) المقال المذكور .

وبغداد الا ما يصفه الكاتب الاوروبى لوزار هذه المدن (1) ... »

الا ترى ان على الدوعاجى قد عبر فى هذه الفقرة الوجيزة عن المفهوم الذى نبحث عنه فى أدبنا الحديث ألا وهو الاصالة ؟

نعم الاصالة ! تلك هي القاعدة الاساسية التى تتركز عليها قصصه وفنه الذى ينم على سعة اطلاعه على القصة الغربية والقصة الشرقية .

لقد قال على الدوعاجى للدكتور محمد فريد غازى : (2)

« ان الكاتب الغربى الذى اثر فى تأثيرا قويا هو « جاك لندن » مما جعله يختار عنوان مسرحيته « راعى النجوم » المنشورة فى العدد الخامس من مجلة « المباحث » من عنوان رواية هذا المؤلف الامريكى » .

ولكننا مع الاسف لا نعرف ما هى الروايات الغربية الشهيرة التى اطلع عليها على الدوعاجى فى عصره .

* * *

كان على الدوعاجى يغرف من الواقع التونسى الشعبى الغرف الواسع الكبير . كان يبنى به فنه القصصى . فلقد اولى اهتمامه بالطبقة الشعبية المعذبة فى طلب الخبز ، واعتنى بها بالغ العناية . وأغلب الظن انه كان يعطف عليها ويرق لحالها كثيرا .

ومن يطالع المجموعة القصصية فى هذا الكتاب يلاحظ بدون شك « الحلاق » و « المؤدب » و « العمة » و « الاديب البوهيمى

---

(1) مقاله المذكور
(2) الدكتور غازى مقاله المذكور .

السكير » و « الملاك » و « القرباجي » و « خدام الحزام » و « المجرم » و « الصانعة » الذين كان على الدوعاجي يعاشرهم صباح مساء في « باب سويقة » و « نهج الكبدة » و «الحلفاوين» و « ربض باب الجزيرة » • هؤلاء هم الاشخاص الشعبيون الذين كانوا يمثلون في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن الشعب التونسي الذي قاسى الاستغلال البورجوازي والاستثمار الاستعماري ، فدخل في اعماقهم ، وسبر ضمائرهم ، وعبر عن اتواقهم ورغائبهم بالسخرية اللاذعة والتهكم المتشائم •

ولشد ما أعجبتني « سهرت منه الليالي » التي اختارها « نادي القصة » لتكون عنوان المجموعة : هذه القصة التي ينفذ من خلالها الدوعاجي ليصور لنا قلب امرأة تكتم حبها لزوجها رغم ما تلاقيه من معاملة سيئة من قبله !•••

وكذلك « الركن النير » حيث يسمو الدوعاجي من الاحاسيس الخصوصية الى المشاعر الانسانية فـ « يشرح » قلب امرأة تتدفق في شرايينها المحبة كان يظن به الظنون !••• وكذلك « أمن تذكر جيران بذي سلم » اين التقط فناننا بعدسته مشاعر امرأة اختلست دراهم معدودات لتمسح دموع صبي جائع شقي !•••

عالم الدوعاجي زاخر بالمشاعر والقيم • دنياه مكتظة بأحاسيس الانسان المدمر المقهور الذي يرجو بصيصا من النور من شموع « العمّ باخير » ! كونه مزدحم ايضا بالصور الكاريكاتورية التي تتهكم على بورجوازيي « نزهة رائقة » كما كان يتهكم موليار ، فيضحك من النظام الفاسد القائم في

زمنه ، ويضحك من نفسه ايضا ، لانه عاش بائرا مغبونا مغلوبا طول حياته (I) •

ولقد صدق فيه قوله :

عاش يتمنى في عنبه	مات جابولو عنقود
ما يسعد فنان الغلبه	الا من تحت اللحود

عز الدين المدني

كنز الفقراء (*)

انصتوا الى الشاعر :

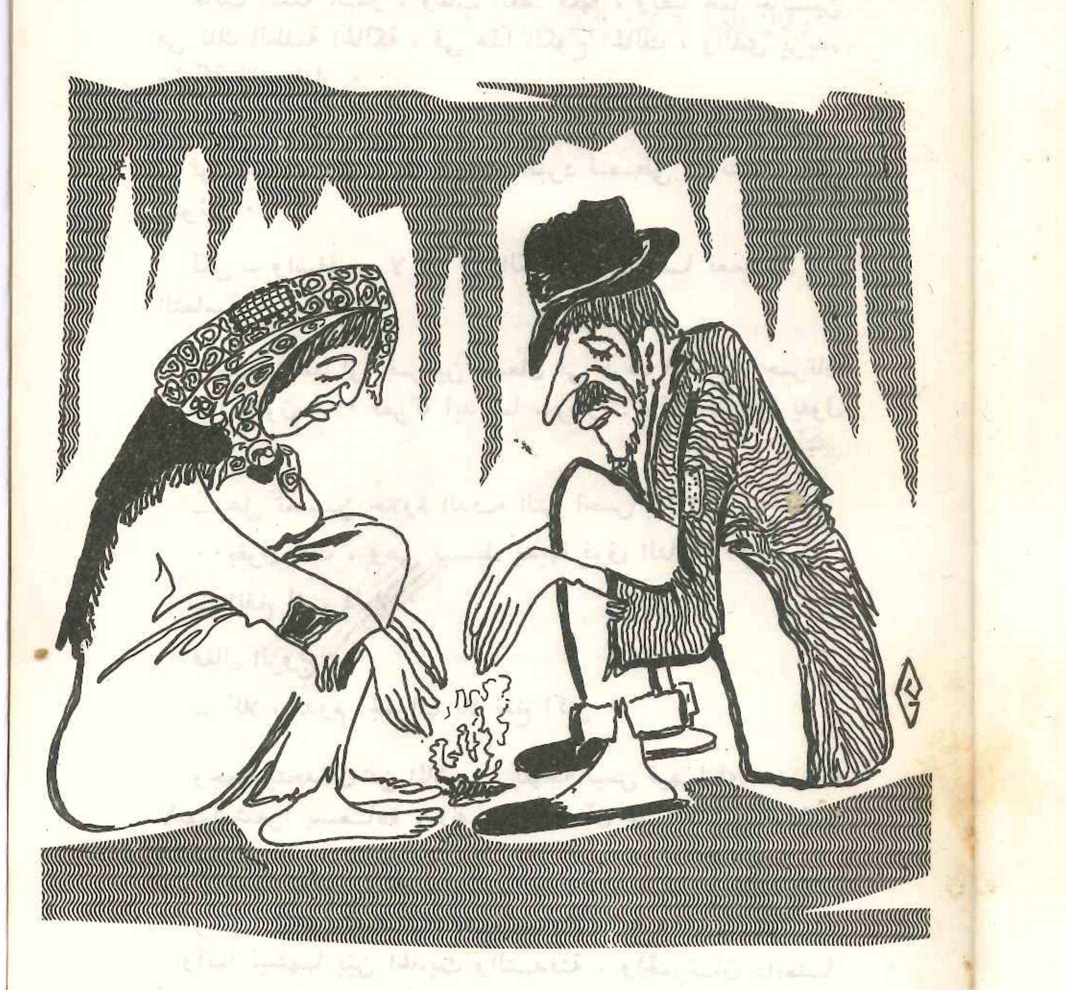
كان فيما مضى ولا أدرى فى أى أرض زوجان من أفقر الناس لا يملكان شيئا ، ولا شيئا من الشىء . لم يكن معهما خبز ليوضع فى السلة (القفة) ، ولا قفة لوضع الخبز ، ولم يكن لهما بيت يضعان فيه قفتهما ، ولا لهما أرض يبنيان فيها بيتا . كانا بلا أرض ولا بيت ولا قفة ولا خبز .

إنهما تعسان ...
كانا يشعران بفقد البيت ، أكثر من فقد الخبز ، إذ يستجديان المحسنين فواضل الخبز ، أما البيت ....

كانا يودان لو قضيا العمر صائمين فى مقابل بيت يمكن لهما فيه أن يوقدا نارا ، يوقدانها من أغصان الأشجار ، يصطليان ويتحدثان على وميض لهيبها .

فى الحقيقة ، إن المهم فى هذه الدنيا ، الألزم من الغذاء هو

(*) قصة شعرية لشاعر ايطاليا الشهير غابريال دانينزيو .



لكية بيت يأوى ، إذ بدون هذه الأربعة حيطان يصبح الانسان والحيوان سواء ٠٠٠

* * *

فى ليلة حزينة ، ليلة عيد الميلاد ٠ ليلة حزينة فى وجهيهما بالأخص ، أحسا فيها بتعاسة أكثر من ذى قبل ٠

ففى تلك الليلة ، كل الآدميين يوقدون نارا ، يصطلون على لظاها ٠ وفى تلك الليلة الظلماء ، وفى الطريق العام ، كانا يرتعشان من شدة القر ٠ واصطدمت أقدامهما بقط ، واحتج القط على معاملتهما له بعواء ٠

كان هذا القط بئيسا أكثر بؤسا منهما ٠ لا يملك إلا جلدا يلم عظامه وقليلا من الشعر فوق هذا الجلد ٠٠٠٠ ولو كانت فروته خصبة لكان أحسن حالا مما هو الآن ولما التصق جلده بعظامه ولو لم يلتصق جلده بعظامه لأمكنه أن يصيد الفئران ، ولما بقى هزيلا كما هو الآن ٠

ولكنه لا يملك فروة ، ولا يملك جلدا أو عظاما ٠ لهذا كان بئيسا ، كثير البؤس ٠

* * *

كل الفقراء والبؤساء أسخياء ، وهم يتعاونون فيما بينهم ٠٠٠

٠٠٠ أمسكا القط ، لا ليأكلاه ! بل ليعطياه قليلا من خبز ، كانت استجدته الزوجة ٠ ولما أكل القط ذلك الخبز قصدا الى كوخ متروك ٠٠٠٠

لم يجدا فى ذلك الكوخ سوى ثقب تنبثق منها أشعة البدر ، عندما يسمح السحاب بذلك ...

غابت أشعة البدر ، وغاب القط معها ، وبقيا هما جالسين فى تلك الظلمة الحالكة ، فى هذا الكوخ الحالك ، والذى يزيده حلوكة فقد النار .

قـال :

لو أمكن لنا إيقاد نار فى هذا البرد فنصطلى ، ونتسامر على ضوئها .

لكن ــ واسفاه ــ لا نار فى الكـوخ ، لأنهمـا تعسـان كل التعاسة .

وأخيرا تفطنا إلى جمرتين تلمعان فى طرف الكوخ ، جمرتان ذهبيتا اللون ... ففركا أيديهما سرورا ؛ وكان الرجل يقول لزوجته :

ــ هل تحسين حلاوة الدفء التى أحس بها ؟

..يقول ذلك ، وهى تبسط يديها فوق النار ...

ــ انفخ أنت قليلا .

فقال الزوج :

ــ كلا ، تدوم الجمرات بلا نفخ أكثر .

وجعلا يتحدثان عن الماضى ، بلهجة ليس فيهـا أى حـزن ، لأنهما شعرا بسعـادة ، وهمـا يتدفـآن على أنفـاس هـاتين الجمرتين .

وهكذا الفقراء يكفيهم القليل يسعدون به .

وأتما ليلتهما بين الحديث والتـدفئة ، والجمرتـان دائمتـا الوميض فى تلك الزاوية المظلمة من الكوخ .

وعند انبثاق الفجر ، وجدا نفسيهما أمـام عينى ذلك القط الذى اطعماه من خبزهما البارحة .

باتا فى دفء من بريق عينى القط ...

وقال القط : كنز الفقراء وهم !..

جـــارتي

كانت الشقة المجاورة لشقتى شاغرة · وكان يسكنها جماعة من الطلبة · وكنت أحمد الله جهرا وسرا يـوم أن سمعتهـم يعتزمون ترك البيت لصاحبه · وكم كان فرحى شديدا عندما رأيت عربة النقل مكتظة بالسجاجيد والمصابيح والقفـاف على اختلاف ألوانها وأحجامها ·

تخلصنا ، والحمد لله من مجاورة الطلبة · وسكنت الحـارة من صراخهم وخصامهم وهراجعاتهم ، وهى متشابهة الضجـة حتى أنك لا تفرق بينها مهما أوتيت من دقة السماع ·

كنت أترقب فى شوق شديد مقدم أجوارى (الجـدد) وقد أعلمنى صـاحب البيت أنهـا (عـائلة) لا تثيـر صراخـا ولا تراجع دروسا ، ولا تربى كلابا ·

لم يطل انتظارى حتى أقبـل السـاعى يحمـل مكتوبـا من صديقى (س) يعلمنى بأنه فى حالة نزع ولم يبين فى مكتوبه إن كان فى حالة نزع أو نزاع ، وبأنه ينتظـرنى على أحـر من الجمـر · · ·

لم يسعنى إلا أن أعيد مطالعة المكتـوب · ثم أن أعـزم على زيارة هذا الصديق (المنازع) ، وصديقى هـذا السيد (س يقيم فى مدينة بنزرت) والسفر إليها سهـل بعد أن اخترت السيارة · ولم تبق إلا صعوبة إيجاد أجرة السيارة ·

تركت البيت ، وترقب الأجوار ، ورؤية الحـريم ينـزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة الغيور ·

تركت كل هـذا ، وذهبت أفتش عن رجـل طيب القلب ، كريم اليد يرضى بأن يقرضنى أربعين فرنكا ــ وهو مبلغ تافه كما ترون ــ · وفعـلا ، وجـدت ضـالتى فى شخص شيـخ إسرائيلى يغيث الملهوف بفائض قدره خمسون فى المائة ·

كم كانت دهشتى عظيمة عنـدما وجـدت صـديقى (س) يتداوى من نزعه أو على الأصح من زكامه فى « بـار » من بازات مدينة بنزرت ·

أعلمت الصديق بما ضحيت فى سبيل نـزعه الكـاذب من مال ، وآمال ، فضحك من سخافتى · وصفق مناديا الخادم الذى بقى فى خدمتنا ليلة ويومين ·

وهكذا ، لم يمكننى القضاء أعنى : القضاء والقدر من رؤية العائلة تنزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة الغيور ·

* * *

قال صاحب البيت ، وهو يرفع حاجبيه الى عمته البيضاء :

ـــ يجب أن تدفع أو أن تترك البيت !

قلت :

ـــ نعم سأدفع إن شاء الله ·

قال :

ـ إن شاء ربى ٠٠ إن شاء ربى ٠٠ إنك لم تدفع القسط الأول من ثلاثة أشهر بدعوى أن مجاورة الطلبة تقلق راحة جنابك ٠ والآن ما يقلقك ؟٠

قلت :

ـ ما لا أود قوله له !٠٠ دفع الفلوس !٠

قال :

ـ طبعا ٠٠٠ يقلقك هذا ٠٠٠ ثم إنك لا تنوى امتلاك البيت بطريقة عدم دفع الأجرة ؟٠

قلت :

ـ لا أود امتلاك مثل هذا البيت المتهدم ٠ ولى والحمد لله من القصور فى جنة الخلد ما يكفى ٠

قال :

ـ والآن ؟٠

قلت :

ـ اسمع يا عم ٠٠٠ الآن وقد خلصتنا من ضجة الطلبة ، وجاورتنا هذه المرأة اللطيفة ، سأدفع ما يجب دفعه فارجوك الاحتفاظ بوصلك هذا الذى سأدفع قيمته بعد مرور ثلاثة أشهر على الأكثر ٠

فاتنى أن اذكر أن جارتى التى سكنت الشقة فى يوم غيابى عن العاصمة كانت إمرأة سويسرية « على حد قول صاحب البيت » ٠ وهى فى الثلاثين من عمرها ، شقراء الشعر ٠ وهى لم تنزل من العربة تحت مراقبة زوج غيور ، لأنها مطلقة ومغرمة ، والهة باشعة الشمس الافريقية ٠

٭ ٭ ٭

يوم 12 ماى :

علمت أمس من جارتى أنها ليست بسويسرية الأصل ٠ وكل ما فى الأمر أنها كانت مرافقة لرجل من أغنياء سويسرا عودها على حياة البذخ والانزلاق على الثلج والنطق بلهجة ألمانية ٠ أما هى ، فهى برتغالية مائة فى المائة ٠ وهى معجبة بسمرة بشرتى وبسواد شعرى الأجعد كل الاعجاب ، وهى تود اقتناء « منتو » من الفرو ثمنه 75 فرنكا ٠

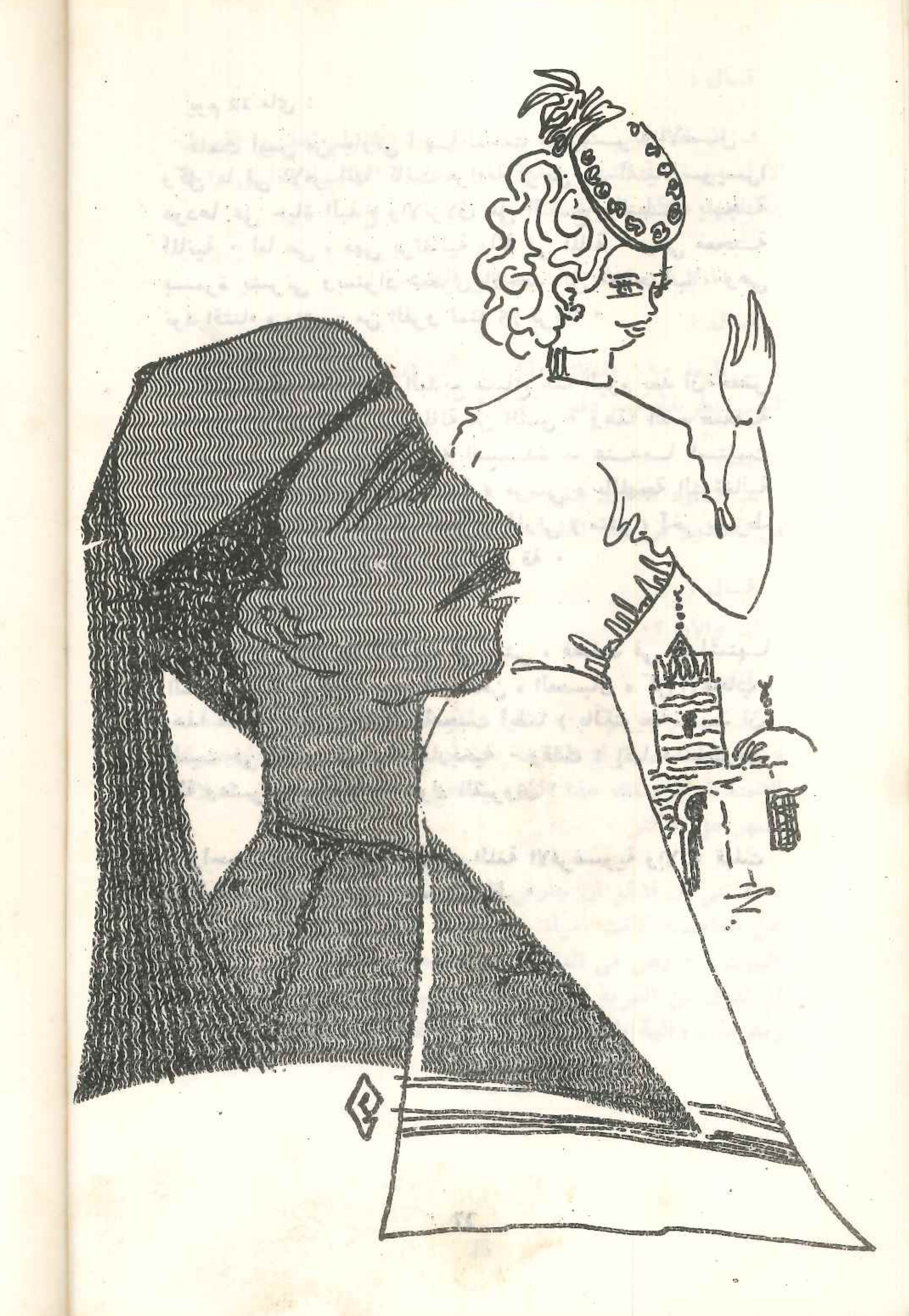
اقتنيت لها هذا المنتو البديع صباح هذا اليوم بعد أن خفض صاحب الدكان اثنين فى المائة من الثمن ٠ وهذا أعده صفقة رابحة ـ حسبما قالته السيدة ـ عندما استلمت المنتو ٠٠٠ ما أحلى نطق كلمة « مرسى » باللهجة البرتغالية (أعنى الألمانية) ٠ أود أن أشترى لجارتى (منتو) آخر بشرط أن تعيد لى قولها « مرسى » بهذه الرقة ٠

يوم 15 ماى :

دعوت السيدة للغداء فى بيتى ، فقبلت فى بشاشتها السويسرية٠ وكانت معجبة بصحن « العصبان » كل الاعجاب٠ وهذا ما أثار غيرتى قليلا وأعجبت أيضا (بالكنويطة) بعد أن أطنبت فى تقدير قيمتها التاريخية ٠ وقلت : إنها صنعت من مائة وعشرين سنة لأحد ملوك القيروان !

وأحمد الله على جهل والدتى اللغة الافرنسوية وإلا لما قبلت أن أزيد فى عمرها بمثل هذا البسط ٠

٭ ٭ ٭



* * *

صاحب البيت :

ـ الفلوس !!! الفلوس ٠

أنـا :

ـ !٠٠٠ الفلوس !!! ٠

صاحب البيت :

ـ ٠٠٠ تدفع أو أحجز !

أنـا .

ـ وعلى أى شىء يوقع حجزك ؟٠

صاحب البيت :

ـ على الأثاث طبعا ٠

أنـا :

ـ تفضل ٠

صاحب البيت

ـ ماذا تعنى ؟ نعم سأحجز ٠

أنـا :

ـ قلت لك تفضـل ، ت٠٠٠ف٠٠٠ض٠٠٠ل ، واحجز على ما بقى ٠ احجز الكانون والسخان ٠٠٠ ها ها ها !٠٠٠

صاحب البيت :

ـ هذه الرقاعة التى يتحدث عنها الناس ! هـذه الرقـاعة وإلا فلا رقاعة فى الدنيا ! القسط الأول لا يدفـع بدعـوى أن السيد تقلقه مجاورة الطلبة ٠ والقسط الثـانى ٠لأن جنـابه متغيب عن العاصمة والقسط الثالث ٠٠ سأحاكمك وستتـرك البيت يحول الله صاغرا بعد أن أحجز ٠ قلت سأحاكمك ٠٠٠ وسأفعل !٠

أنا :

ـ لا . لا تفعل .

صاحب البيت :

ـ ولم لا أفعل ؟ سترى !.

أنا :

ـ من فائدتك أن لا تفعل لو قاضيتني لطالبتك بتعويض .

صاحب البيت :

ـ ماذا ؟ تعويض ؟ وهل سقط عليك جدار ؟.

أنا :

ـ سقطت على أفعى ! أفهمت ؟ أفعى سويسرية أو برتغالية امتصت كل ما أملك وأنت السبب فى هذا !.

صاحب البيت : (فازعا) ...

أنا :

ـ (وقد شجعنى فزعه) نعم أنت . ألم تقل إنها أرملة مركيز هولاندى ؟ ألم تقل يوم أن سألتك عنها : إنها ابنة ملك المسامير ووارثته الوحيدة ؟ ألم تقل كل هذا والحقيقة هى ما تبين أخيرا من أنها نصف مجنونة لا تملك إلا وجها صفيقا ، وشنطة التواليت . هذه ابنة ملك المسامير ! لم تترك لى من البيت إلا مسمارا واحدا من وضع معامل والدها المحترم . وهذا المسمار يحمل غربالا « سقاط » . ارجوك الاحتفاظ بوصلك هذا الذى سأدفع قيمته بعد مرور ثلاثة أشهر أخرى . هذا إذا لم تسكن الشقة المجاورة جارة لطيفة من هذا العيار .

في شاطىء حمام الانف

كانت عربة القطار مكتظة بجسم امرأة من الوزن الثقيل والثقيل جدا . ومما زادها ثقلا أنها كانت ترتدى ثوبا أحمر ، وتلبس شفاها وأظافر من نفس اللون . وكما أنها ملأت العربة بلحمها فقد ملأتها أيضا بحركاتها ، وبابنها . ولا شك فى أن ابنها سمين كبير الرأس ، ويلبس اللون الأحمر . وأظن أن لبس الأحمر وراثى مثل السمنة فى هذه العائلة . وكان الصبى يصرخ صراخا كأنه بكاء ، ولكنه ليس ببكاء . وكل من فى القطار تضايق من هذا الصراخ . وود لو أرضى هذا الصبى بما طلب ، فتكاثرت عليه الأسئلة : هذا يسأله عما يريد . وذاك يرقصه على ركبتيه . وذاك يربت على أنفه ، والصبى يزداد غضبا ويزداد صراخا ، وكأنه يصرخ للصراخ نفسه . لا يريد بذلك سندويشا ولا زمامير . الحق لقد تحملت هذا الشقى اربعة « ادراج » ثم شعرت أني أسرفت كثيرا في تحمل ما لا يطاق فهاجرت الى عربة أخرى .

لم أر أحدا فى بادىء الأمر ، فدخلت مطمئنا آمنا . حتى اجتزت « البوكس » الثاني ، وهنا لقيت شابا وشابة أو ما نسميه في لغتنا الكلاسيكية (بروميو وجولييت) روميو شاب له متر وتسعون صنتميترا ، كثير الشحوب ، طويل الأنف

كأنه شاعر · وجولييت صقلية ، ربعة القامة ، تلبس اللون الأصفر الفاقع ـ كما تلبس الملوك فرو الهرمين ـ وكانا يتكلمان همسا ، ويبتعيضان عن الفوغاء بكثرة حركات أيديهما ، فروميو يرفع يديه الى أعلى ثم يمد يده اليسرى الى الأمام · كأنه يقول : « أحبك وأقتل أباك بخنجر إذا ··· » وجولييت تدير أصابعها حول بعضها كأنها تجيبه : « ساطرز لك منديلا تفتخر به أمام نائب القنصل » ·

هذا لا يطاق ! ؟ أجالس عاشقين ولا أرى ولا أسمع منهما إلا رموزا ··· لم أركب القطار لهذا ! نعم ركبته ليحملنى الى حمام الأنف · والمهم أن أصل الى حمام الأنف فلأترك العربات كلها ، وأتمم طريقى جالسا على سلم العربة ، من الجهة اليمنى ، أتفرج على أعمدة التلغراف وأحصيها اذا تمكنت من ذلك ·

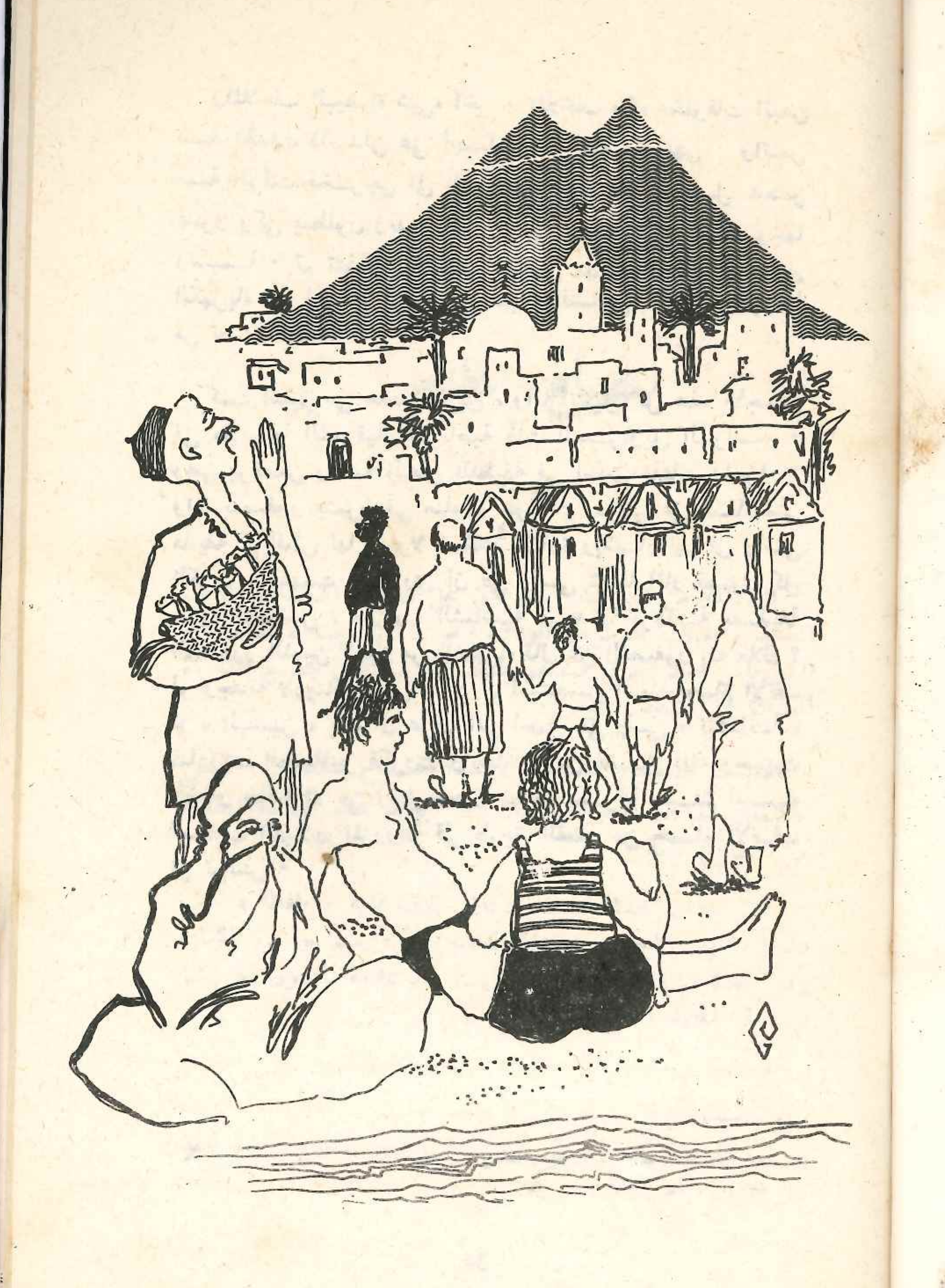
* * *

من المحطة الى الشاطىء أمشى مسرعا للتفرج على المستحمين · والعجيب أنه ليس بحمام (الأنف) بل هو حمام بقية الجسم أيضا من افخاذ ونهود و ، و ، و ···

كان الشاطىء ملآنا بباعة الكاكاوية والليموناضة ، والمستحمين ، والملاحف البيضاء البديعة ·

باعة الليموناضة والكاكاوية معروفون من الجميع بوساختهم ورقاعتهم · والمستحمون رجالا ونساء ، خالعون ملابسهم وحياءهم ، وهم مرة يحسون الحر فيرتمون فى الماء · واذا أحسوا البرد فى الماء انبطحوا عارضين أجسامهم لأشعة الشمس ؛ فهم بين البرد والسخانة طول يومهم ·

والعادة أن يستحم الانسان يوما كاملا ليعتبر مستحما داخليا « انتيرن » · أما من ينزع ليلبس بعد نصف ساعة على الأكثر فهو مستخم أو مستحم خارجيا « إيكسترن » ·



والملاحف البيضاء شىء آخر . الملاحف هذه مخلوقات اتبعن سنة الجدات فأسدلن على أجسامهن الناعمة ملاحفهن . واتبعن سنة الوقت فخرجن الى الشاطىء ينتقدن ترجيل شعر عمرو وكى بنطلون زيد. وهذه تنسى أنها ملتحفة فتريك وجها وسيما . ثم تتذكر فتختفى داخل ملحفتها بعد أن تبعث الكهرباء فى أجسام أربعة من شبان الشاطىء كانوا يراقبونها من نصف ساعة .

كنت أسير فى هذه الطريق ، وأنا أتخيل كل هذه الأجسام فى ملابسها الشرقية الغرناطية ذات السراويل الواسعة . وهن يرقصن رقصة البطن اللطيفة فى إحدى قاعات الحمراء . واذا بعصفور يتمرن فى مناورة جوية ؛ فرمى على شاشيتى قذيفة لم أفطن لها ، لولا ضحك المارة وإشاراتهم الى رأسى الكريم ، ففهمت بشعورى أن فى رأسى شيئا أثار فضول كل هؤلاء الأفاضل ، ونزعت الشاشية فوجدتها مزدانة بقذيفة العصفور اللعين . من من الشعراء قال عن العصفور إنه ملاك ؟ لو وجدته لأريته إبليس ... لم أستحسن البقاء بحمام الأنف أو « البسين » بعد أن عرف أنى أحمل على رأسى « نيشانا » لمناورات العصافير فكررت راجعا . ومن فضل الله وجدت القطار خاليا إلا من رجل عجوز يعرف معرفة جيدة أسماء أصحاب الفيلات المزروعة فى طريق القطار من حمام الأنف الى تونس .

المصباح المظلم

– 1 –

كان ثلة من الصبيان يتمرنون على قذف الحجارة بخيط المطاط ، أصاب أشطرهم الهدف وهو « أنبوبة » المصباح الكهربائى . ثم تفرق شملهم بأذان المغرب الذى جمع التقاة للصلاة فى مسجد الحومة .

أضيئت مصابيح الشارع إلا هذا المصباح المكسور ، وبقى كأشجار الخريف . وكان رذاذ المطر يزيد هذه النقطة المظلمة من الشارع كآبة .

كان بجانب هذا المصباح دكان حلاق عليه « يافطة » كتب عليها باللون الأحمر « الحلاقة العصرية » ورسم بجانب الكتابة رمز الحلاقة « الموسى » ولقد فهمت بعد علامة اللون الأحمر صناعة الحلاقة .

(*) هذا العنوان أخذناه من الجزء الثانى من هذه القصة التى لم نعثر على بقيتها (نادى القصة) .

خرج الحلاق من حانوته فرأى المصباح مظلما ، ورأى يافطته لا تقرأ فى ظلام هذه النقطة من الشارع · فخلعها من موضعها وأدخلها داخل حانوته · ثم التفت الى المرآة ليصلح من شاربه الأسود القائم الى فوق بالشكل الذى تسميه الماجنات من نساء القرن الفائت بمعلاق القلوب · هنا سمع الحلاق وقع خطى فى الشارع المطر المظلم · وتطلع ككل فضولى لا يريد أن يمر أمام دكانه إنسان بدون أن يعرف من هو والى أين يقصد · لكن ظلمة الشارع حالت دون استطلاع الفضولى · فوقف فى عتبة المحل ·

ودفعه الاستطلاع ، فتخطى خطوات نحو المصباح ، فرأى امرأة ملتحفة بيضاء ، واقفة ، تتظلل تحت ستارة دكان بجانب المصباح ·

كان رذاذ المطر قد فعل فى شعر الحلاق ما لا تفعله « الفركسيون » وأحس صاحبنا بهذا · فبقى حائرا بين الدخول لترجيل شعره ، وهو يغار عليه ، ويعرضه كأنموذج لصناعته ، وبين معرفة هذه المستندة الى المصباح ؟ ومن يدرى ؟··

فربما تعرف إليها وأدخلها دكانه الأنيق الحاوى من حقق « الغبرة » وقوارير العطر ما يستهوى قلب أشرف بنات حواء· وليس كالطيب فى استهواء قلوب النساء · من يدرى ؟··

أخيرا ، غلبت عليه طباع (ال····) فدخل دكانه · واستعاد وقفته « الكليشى » أمام المرآة ، وأخذ يسب غلامه الذى وضع المشط فى غير محله ·

« هذا الكلب ابن الكلب ، أقول له وأعيد : ضع المشط على اليمين ، واللعين لا يضعه إلا على الشمال ، ولا يفعل إلا خلاف ما أوصيه به · لكن ظنه « شلاوى » يستعمل اليسرى مكان

وكأن نكتته هذه أعجبته · فأخذ يعيدها بصوت عال لعل لأنثى الواقفة بجوار دكانه تسمعه · ولا بد أنها سمعته ما لم تكن صماء ، ثم أعقب ذلك بضحكة عالية ، وهو ينظر للمرآة ويمشط شعره المبلل · وأطال النظر فى صورته المنعكسة على المرآة لأنه وجد للمرة المليون وجهه وسيما جذابا ، خصوصا شاربيه السوداوين القائمين الى فوق ·

فلماذا لا يخرج لهذه الواقفة فيجرب جاذبيته فيها ؟

وفعلا خرج صاحبنا للشارع ، وأجال نظره الدقيق الذى لا « يخطىء الشعرة » لكن الأنثى ذهبت وفلتت الصيدة فاغتاظ وأخذ يسب المطر والشعر والنساء ···

— 2 —

خرج المصلون من صلاة العشاء ، واضعين برانيسهم على رؤوسهم ، يسرعون الخطى الى دورهم · ومرورهم أمام الحلاق ذكره وعده لصديقه اسماعيل فى قهوة « الحاج على » إثر صلاة العشاء ؛ فلبس جبته ، وسوى شاشيته على رأسه ، وأطفأ المصباح المعلق فى سقف الدكان · ثم أخذ يفتش فى كل جيوبه عن المفتاح حتى وجده أخيرا فى حقة القصدير حيث اعتاد وضعه · فأغلق الباب · وفتح سبحابته · واستعد للذهاب · والتفت فجأة الى ناحية المصباح المظلم ، فرأى المرأة واقفة ·

قال فى نفسه : « هى نفسها التى كانت واقفة ؟ لا · تلك ذهبت بدليل أنى لم أجدها عندما خرجت للمرة الثانية ···· لكن من هذه يا ترى ؟ وما سبب وقوفها بجانب المصباح كالأخرى ؟··· سأعلم كل هذا منها »

قصدها وابتدأها :

— مساء الخير يا لله !

ـ مساء الخير ٠

ـ تحبش نغطيك بسحابتي ، اظنى الشتاء حاصرتك ، نوصلك وين تقصد ؟

ـ المقصود ربى !

ـ معلوم ! لا مقصود غيره ٠ لكن وقوفك تحت الفنار ٠٠٠ والشتاء قالت شد يدك ، والدنيا ظلام شيء يخوف !!!

ـ الخوف من الله !

ـ ما فيهش كلام ! الخوف من الله ومن اللى ما يخافش من الله والدنيا مليانه بيهم ٠

ـ هانى قاعدة نشوف ٠

ـ فاش ؟

ـ فى اللى الدنيا مليانه بيهم ٠ إبدا بيك أنت لا باس تكلم فى ؟ ومنين تعرفنى ؟

ـ المعرفه ٠٠٠ لا محاله ما نعرفكش لكن نعملوها معرفه جديده ٠

ـ برا على روحك وخى يهديك ، وخلينى لاهيه فى همى ٠

ـ تحبش نعاونك عليه ؟

ـ اشكون هو ؟

ـ لا ٠ همك اللى لاهيه فيه (وشجعه سكوتها فاتم) راني ما عنديش حتى نيه كان فعل الخير ٠ اسمع كلامى نغطيك معايا ٠٠٠

ـ مليح !٠٠ لكن بشرط ما تلصقنيش وما تكلمنى حتى كلمه ٠

قالت هذا ، وهى تهدد بالطف بنصر رآه في يد امرأة ؛ فأجاب الحلاق ، وهو ينظر الى يدها والى الماسة الثمينة التى

تلمع وسط الظلام ٠

ـ الله يبارك قبلت ٠٠٠ تفضل ٠

ـ 3 ـ

كان صاحبنا خبيرا بالعطور حسب صناعته ٠ ولكن رائحة عطر هذه المرأة لم يعرفه ٠ فجعل يسأل نفسه : « هل هو عطر « الفرفيل » أم « ليلة باريز » ؟ » وأخيرا سالها :

ـ بالله آش اسم ها الريحة اللى عندك ؟

ـ ماو اتفقنا ٠٠٠ الكلام لا ؟

ـ لكن أنا صنعتى حجام ٠٠٠ حبيت نعرف اسم ها الريحة بـرك !

ـ من كل مشموم نواره !

ـ عظيم ٠٠٠ واشكون شراها لك ؟

ـ اشنوه ؟

ـ ٠٠٠٠ قتلك منين شريتها ؟

ـ هذا ما يهمكش واسكت وإلا خلينى نوللى على ثنيتى ؟

ـ سكت ٠ الله يبارك كيما تحبنيش نكلمك نسكت خير ٠ والناس اللوله قالوا اذا الكلام فضة السكوت ، من كل مشموم نواره » اسم حلو آش عندى ما نقول ، ولريحة طيبة شميتها من اللى كنت فى حانوتى ٠ وغلبت الروايح اللى عندى الكل ٠ وقت اللى كنت واقفه تحت الفنار ٠٠٠٠ ما افهمتش التوه اشنيه وقفتك ٠ لا هانى سكت ٠

ـ إيه اسكت ٠ وانت اسم الله العظيم تشد ما تسيب ٠

ـ صلى عانبى ؟ آش باش تقول ٠

ـ أنا نقلك إسكت وانت تقلى آش باش نقول ؟



ـ لا ··· على خاطر ريتك واقفه · ومن بعد عاودت حزرت ما لقيتكش ··· وين جيت مروح نلقاك وليت !

ـ هز يدك على كتفى !

ـ طيب ! ·· لكن نحب نعرف !

ـ أوووفه !

ـ وين ماشيه ؟

ـ لـواش ؟

ـ باش نعرف أما ثنيه نقصدوها ·

ـ السبخه ·

ـ سبخة ترنجه ؟

ـ لا سبخة باب الجزيره ·

ـ ايوه خلينا الثنيه ورانا لو كان عرفت رانا خذينا ···

ـ يزى يزى هيا نوليو ··· لو كان نشدتنى على هذا اللول رانا وصلنا ·

رجعا الى نهج الباشا ثانيا · وما كادا يسيران بضع خطوات حتى اشتد المطر ، فالتصقت به المرأة وأحس بحرارتها · وجعلا يسيـران ، وكـأنهمـا شخص واحـد حتى مـرا بالمصبـاح الكهربائى ··· وبدكانه فسألته ، وهى تختنق بكلماتها :

ـ عندك دار ؟

ـ اما لا نبات تحت الحيط كى القطاطس ·

ـ تقد تنجم دخلنى نبات فى دارك لكن أنت متزوج ؟

ـ الله يلطف ما زلت عازب رأسى رأس الوالدة ·

ـ نمشى معاك لدارك بشرط ما يرانى حتى حـد ! واللى نقلك تعمل فهمت ؟

قالت هذا ، ولو أمكن أن يرى وجهها لرأى دمعة كاللؤلـؤة ترقرقت من عين المسكينة · لكنه أجابها ضاحكا :

ـ على الرحب والسعة ··· هذى نعمه غير مترقبة (وهى عنده أجمل عبارات المجاملة) وأرعشتها ·

كانت متكئة على جانب الكنبه · وكان جالسا على كرسى قبالتها · فسألته عن الساعة · وبعد أن أعلمها أنها الثانية بعد منتصف الليل ، أخذت سيقارة وأشعلتها · ثم رفعت نظرها الى صاحبها الجديد وقالت :

ـ تعرف رانى ما نيش كيف ما تسخايلنى ···

ـ العفو العفو ـ وأنا آش سمعت من فمى ؟

ـ موش لازم نسمع من فمك ··· أما حبيت نقلك اللى أنا جيت معاك ما نيش عاشقه فى عينيك ، ولا فى مشطة شعرك ، ولكن أنا عملت عملتى باش نرد الفازيته وناخذ بثارى ·

هنا صاح الحلاق مصعوقا :

ـ بالثار ممن ··· منى ···!؟

راعي النجوم

كان (هو) رجلا عاريا ، وكانت (هى) امرأة عارية إلا من ظلام النفق · (هو) ينظر فلا يرى شيئا · و (هى) تترقب (متى تراه) على الجمر · وكأنما تقل عليها هذا الظلام ، وهذا الصمت ، فأخذت تحادثه :

هى ـ قل ·· ألست أنت ·· راعى النجوم ؟

هو ـ أنا هو ·

هى ـ ما أتعبك وأثقل كاهلك حتى جعلك لا تراها ؟

هو ـ أتعبتنى الراحة ·

هى ـ وما أنت صانع الآن ؟

هو ـ (لنفسه) ما أكثر أسئلة المرأة !! (لها) إنى لا أجد الوقت لئلا أصنع شيئا ·

هى ـ أتعرف « الأبجدية » ؟

هو ـ ذاك مما لا أزال أذكره ·

هى ـ اكتب ···

هو ـ ألا ترين الظلام يشملنا ؟

هى ـ أنا ؟· أنا لا أرى الظلام فى الظلام !!· ولكن غن ·

هو — أتودين أن أضحك ؟

هى — أود ذلك ككل امرأة ..

هو — إذن ، أعيرينى إبرة .. آخزك بها .

هى — (تضحك) ألا تستطيع ذلك بدونها .

هو — أستطيعه لو كنت على خبث الآخرين .

هى — (تضحك) أرى أنك لا تستطيع شيئا مطلقا مثل الآخرين وخيبتك هذه دفعتك الى التطلع ..

هو — (مقاطعا لها) لا تذكرى النجوم من فضلك ... قبل أن تطهرى فمك من الضحك .

هى — هذا حمق . إن الضحك أطهر من الطهارة نفسها .

هو — (لنفسه) : يوجد ضحك .. وضحك .. (لها) أتضحكين منى أو على ؟

هى — وهل ثمة فرق ؟

هو — أو أنت مثلهم لا تعنين بالفروق ؟

هى — أنا لا أعتنى إلا بك (النور ينير الظلمة) وها أنا أراك .

هو — هذا برق .. ما هذا بنور .

هى — هذا الفجر .

هو — هذا الفجر .. ما أجمله ! .. لم أرك قبل الساعة .

هى — (يائسة) : هو ينظر الفجر ولا يرانى أنا !!؟ نعم هو ذا الفجر كما وصفته لى أمى .

هو — أمك ؟ وهل رأت أمك فجرا ؟

هى — نعم فى ليلة وكانت صائمة ..

هو — تصوم ليلا ؟

هى — ليس فى استطاعة الفقير أن يختار أوقات عبادته .

هو — وهل كانت أمك فقيرة ؟

هى — (فى خيلاء) : نحن نتوارث الفقر فى عائلتنا منذ الأجيال الأولى .

هو — عجيب .. ولماذا ؟

هى — ما هذا الاستطلاع ؟ تود أن تعلم كل شىء ؟

هو — كل شىء ! ما أفخم هذا التعبير ... الواقع أنى أجهل كل شىء سوى : لم تتوارثون الفقر فى عائلتكم ؟

هى — ليس لنا مكان يحفظ ثروتنا .

هو — أعطنيها .

هى — ستقتلنى ضحكا (تضحك) أأعطيك ما لا أملك ؟ وأنت أليست لك ثروة ؟

هو — هيه ! كان لى كنز كله أحجار ثمينة .

هى — قل مقطعا ، كالموجود خلف هذا الجبل .

هو — قلت لك أحجار ثمينة .

هى — هنا ! كل الأحجار ثمينة ما دامت تقينا الحر والقر .

هو — كانت أحجار كنزى أثمن من تلك ....

هى — ما تبنى بها ؟

هو — لا تصلح للبناء .

هى — ولماذا ؟

هو — لأنها ثمينة .

هى — وما جعلها ثمينة ما دامت لا تصلح للناس ؟

هو — لأنها نادرة تبرق كما كانت تبرق عيناك عندما يتنى .

هى — هذا مما لا أفهمه . وأين كنزك الذى لا يصلح لشىء؟

هو ــ أودعته الأرض ولكنى غفلت عن وضع علامة له ، وضاع تفتيشى سدى ٠٠

هى ــ أتود أن أفتش أنا لك عنه ؟

هو ــ ألا تسكتين ؟

هى ــ أو تسكت المرآة ؟

هو ــ ما أجمل هذا النور ٠٠ ما أجمل لون هذا النور ٠٠

هى ــ النور له لون !! وهو فرح به ، لا يدرى المسكين أنه على هذا النور سيكتشف الغرباء مكان الكنز ، وسيحتفظون به خصوصا اذا كانت لهم أمكنة يضعونه فيها ٠

هو ــ ليكن ٠

هى ــ ما هذا الشذوذ ؟

هو ــ الحقيقة أنى كذبتك خبر الكنز ٠

هى ــ ولم كذبتنى ؟

هو ــ لأعجبك ٠

هى ــ تعجبنى ٠٠ وأنا أعلم أنه ضائع ؟

هو ــ الناس تعجب حتى بالثروة الضائعة وبأصحابها الذين أضاعوها ٠

هى ــ ولم أطلعتنى على الحقيقة ؟

هو ــ لأنى ذو ضمير ٠

هى ــ وأين هو هذا الضمير ؟

هو ــ فى ٠٠٠ ثم لأنى لا أحسن الكذب ٠ أود أن أعجبك كما أعجبنى أنا هذا النور ٠

هى ــ لكنك لست بنور ٠ ثم أنت لا تعجبنى إلا إذا تركت التطلع لرؤية النور ، ورعاية النجوم ٠ أنا أريدك وقحا قليل الحياء ، صفيقا تتطلع فى جسدى بنظراتك الملتهبة ، حتى تحمر وجنتاى غيظا منك ، وخجلا من نفسى ٠ أرعنى أنا ٠

هو ــ لا ٠ و ٠٠ وإذا ٠٠ أضعتك ساغتاظ أنا بدورى ٠

هى ــ ولو ٠٠ ليس لى أهل فلا تخش مطالبة ٠

هو ــ تطالبنى بك نفسى ٠

هى ــ أجحدها ٠

هو ــ إلا إذا وعدتنى بأن لا تضيعينى ٠

هى ــ أنا لا أستطيع أن لا أضيع ٠٠٠ (يعودان الى الصمت) (بعد لحظة) مالك صامت ؟ حدثنى املأ نفسى بفراغ ثرثرتك ٠٠٠

هو ــ (لنفسه) هى ككل من عرفتهن ٠٠ (لها) وما الغاية ؟٠

هى ــ وهل ثمة غاية ؟ إن الغاية عندنا هى الواسطة ٠

هو ــ الغاية هى الواسطة ؟ هل نعمل شيئا لا لشىء ؟

هى ــ للعمل ذاته ٠ كان كل من الجنسين يحب الآخر لبقاء الجنسين ٠ ألا ترى الآن أننا نتحابب للحب ؟ كمن يأكل للذة المضغ والبلع ؟ هكذا الانسان الراقى يعمل لنشوة العمل ٠

هو ــ هذا واقع كان يجب أن لا يقع ٠

هى ــ نحن لا نبحث عما يجب ٠ وإنما نتبع سنن البشر ٠

هو ــ أنا لا أحب ذلك ٠

هى ــ أرأيت انك أنت الذى لا يود أن أعجب به وأكبره ٠

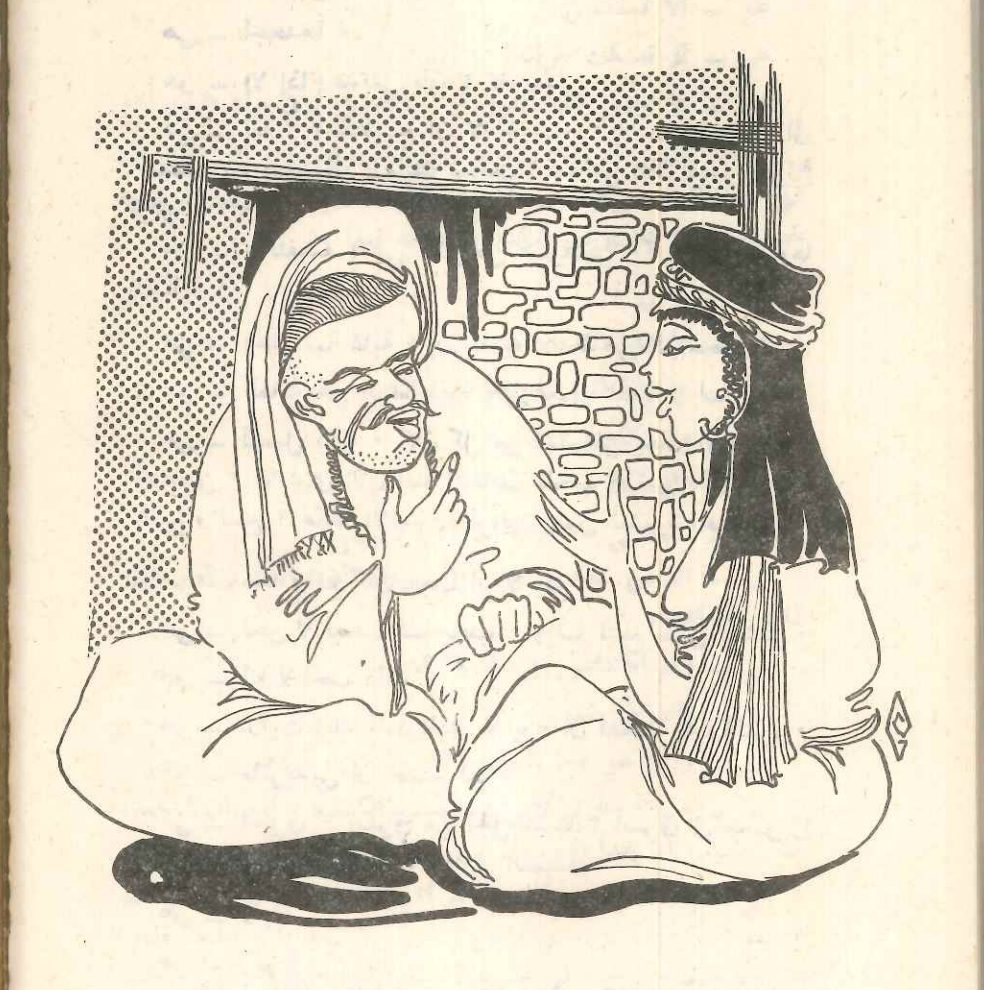
هو ــ ماتريدين أن أصنع لك ؟

هى ــ اسرق ٠ اسرق من أجلى شيئا ؟ اسرق لى سوارا أزين به معصمى ورصعه بأحجارك الثمينة ٠

هو ــ لا ٠

هى ــ ولم ؟

هو ــ أولا لأنى لا أملك من الأحجار إلا كذبى ٠ ثانيا لأنك تنسين ٠



هي ـ أنـا ...

هو ـ ألم تذكرى أنك لا تملكين مكانا يحفظ لك اشياءك ؟

هي ـ ولو . اسرق لى ، وسأحتفظ بسوارك ما استطعت .

هو ـ أنا لا أسرق .

هي ـ حتى لمشاركتى فى جرم ؟ حتى لمشاركتى فى اقتراف ذنب مشترك بيننا . أنت لا تحبنى .

هو ـ أنا لا أود أن أسرق . وأخشى أن اصبح مدمنا على السرقة .

هي ـ ولو ...

هو ـ وبحكم الادمان اسرقك أنت بدورك .

هي ـ اسـرقنى ، أوه اسـرقنى الآن إن شئت . نحن لا نطلب أكثر من ذلك .

هو ـ !!!؟

هي ـ ألا تعلم ان وراء ذلك الشهرة ؟

هو ـ لا أود ذلك سرقة إنما .. ما ألطف جسمك ... ألا تعيريننى إياه ساعة ، أو أقل من ساعة ؟

هي ـ (فى حدة أقل من ساعة) ، هوه . (تلطمه لطمة) خذ . يا وقح ! يا قليل الحياء ! ألا تخجل من أن تفاتح مثلى بمثل هذا ؟

هو ـ إنى لم أقل شيئا اذا ... (يضـع يـده على مكان الصفعة) .

هي ـ أعيرك نفسى يـا وقـح ! يا وحش ! ، نحـن نهب أجسامنا هبة (لمن) يتملكها غصبا ورضى . ولا نعيرها ، هذه الخطيئة الكبرى ، هذا الذنب الذى لا يغتفر . نحن لا نسلـم أجسامنا إلا هبة ، أو تسليما لمغتصب ، ذلك مـا أمـرتنى به أمى ، أنا امرأة شريفة .

هو — وما الشرف ؟

هى — الشرف هو أن تعمل أعمالا شريفة •

هو — وما هى الأعمال الشريفة ؟

هى — الأعمال التى تواطأ الناس على تسميتها بذلك ••• (بعد لحظة) أنت تعيش بماذا ؟

هو — بالقوت والماء مما يجرى تحت الأرض وينبت فوقها •

هى — وهل الأرض لك ؟

هو — الأرض •• للكل •

هى — لا • الأرض لأصحاب الأوراق

هو — ما دخل الأوراق فى الأرض ؟

هى — الأوراق •• هى التى تخول حاملها ملكية الأرض •

هو — الأوراق لا تؤكل •

هى — لكنها تعيننا على أكل الطيبات •

هو — من أين تأتيهم الأوراق ؟

هى — يسرقونها ••• بعضهم من بعض •

هو — ولم يسرقونها ؟ لم لا يفتكونها علانية ؟

هى — يالك من وحش ! ألا تعلم أن المدنى لا يغتصب ولا يفتك ! من يرضى بذلك ؟

هو — الجائع •

هى — قل : العاجز ، قل ••• لأن كلمة جائع حذفت من قواميس المدنية •

هو — أأنا عاجز لأنى آنف من ارتباك السرقة ؟

هى — أنت أقل من عاجز • أنت وحشى : ألا تعلم أن فى السرقة مجاملة ومجابرة للمسروق ؟ وفى الاغتصاب قهرا

للمغتصب وذلة للمغتصب ؟ وأنت مخير بين عز السرقة ، وذل السؤال ، ووحشية الاغتصاب !

هو — مسكينة ••!

هى — أنا ؟

هو — لا ••• أمك التى علمتك هذا ؟

هى — وأنت ما علمتك النجوم ؟

هو — أسماءها •

هى — وهل تأتيك اذاناديتها أو حتى تجيبك جوابا ؟

هو — أسميها للمعرفة لا غير •

هى — ما هى المعرفة ؟

هو — السمو •

هى —أليس هو الغرور والأنانية ؟

هو — لكن لولا الغرور لاحتقر الانسان نفسه •

هى — أنت تحتقر الكذب على الناس • ولكنك تكذب نفسك بنفسك ، ولا ترى فى ذلك بأسا •

هو — لى لذة أخرى فى المعرفة هى الحديث عنها مع الناس•

هى — وهل تربح من هذا ؟ هل يعطونك شيئا مقابل حديثك عن معرفتك ؟

هو — أنا لست بتاجر • هذا ما لا أفعله مطلقا ؛ لأن المعرفة لا تنقص •

هى — بالعكس كل شىء يزداد إلا المعرفة • هل زيد شىء فيها عما عمله الانسان الاول • ألا ترى أنك تأنف من سرقة الناس ولكنك تسرق نفسك ؟

هو — ولو •• نفسى لى أنا •

هى ـ هذا غلط آخر · نفسك لغيرك · لى أنا مثلا ما دمت بجانبك ·

هو ـ حسن · ها أنا أصبحت لها الآن !

هى ـ هذا بديهى إذ أنك لا تملك من نفسك شيئا · أنت لا ترى نفسك حتى مجرد الرؤية · وأنا أراك فأنت لى واذا رأيتنى فأنا لك ·

هو ـ لكنى أسمع نفسى ·

هى ـ لا تكذب ، وأنت تدعى أنك لا تحب الكذب · أنت تسمع نفسك ؟

هو ـ (هازئا) حتى ولا صوت ضميرى ؟

هى ـ ضميرك يعيد ما سمعه ممن وضع فى نفسك هذا الضمير · هذا ما قاله لى أبى ·

هو ـ وهل علمك أبوك أيضا ؟

هى ـ علمنى ·

هو ـ ماذا ؟

هى ـ الحساب مثلا ·

هو ـ لتحسبى به ماذا ؟

هى ـ كل شىء ··· الأيام مثلا ·

هو ـ وما الفائدة من عد الأيام وأنت كلما سئلت حتى عن أيامك لا تقولين الحقيقة ؟

هى ـ جميل منك هذا · هل أنت أصبحت تحسن الوخز بدون إبر · الحقيقة ؟ وهل ثمة حقيقة فى العالم ؟

هو ـ لا · الحقيقة هى الكذب الذى تواطأ الناس عليه ·

هى ـ إلا الرياضيات على ما يقال ····

هو ـ إذا لم تأت قواعد حديثة تغيرها ·

هى ـ هل الأرض تدور حول الشمس أو العكس ؟

هو ـ لم تجدى إلا هذا ؟ حقيقة ان جهلك علمنى أشياء كثيرة ·

هى ـ ليس أقبح من العلم الزائف ·

هو ـ إني أرى نجوما فى عينيك ·

هى ـ ارعها إذن ·

هو ـ ونجوما فى فمك ·

هى ـ هى لك ·

هو ـ انسى ما حفظته من والديك ·

هى ـ أنت أمى وأبى الآن · وأنت انس النجوم ·

هو ـ لولا النجوم ما وجدتك ·

هى ـ وأنا أغار منها ، أريدك لى ·

هو ـ وهل أنا لغيرك ؟

هى ـ أصحيح ؟ (فى فرح) وماذا ستفعله من أجلى ·

هو ـ سأترك الكلام ·

هى ـ قبلنى ·· زد ضمنى بين ذراعيك · آلمنى ألما شديدا ·

هو ـ وكيف ؟ وأنا أحبك ؟

هى ـ لو كنت تحبنى لفعلت ·

هو ـ أتجدين لذة فى تأليمى إياك ؟

هى ـ ألم تعدنى بترك الكلام ؟· إنى أكرهك وأكره كل ما هو لك · وأود تحطيمه تحطيما حتى جسمى بعد ما وهبتك إياك ، أنا أكرهك وأكره فيك نفسى ؛ لأنى ·· لأنى ·· أعبدك ·· لأنى ···

هو ـ امرأة .
هى ـ اسكت . وقبلنى .

(ينزل الستار وهما متعانقان فى قبلة طويلة جعلتهما يرتعشان ـ من عرائهما ـ وهكذا عاشت البشرية بين تعاليم الأم وفلسفة الأب ولا تعطى المرأة قبلتها للرجل إلا إذا وعدها بتملكه إياها فى عبوديته لها . ولا ترضى إلا إذا وعدها بأن لا يقول لها شعراً) .

أحلام حدى (*)

بالله واش زهاك قولى يـا شمعـه
رانـى عـانسقيك أعصيى حبـر

نظنو بيك هبال وكفـاخ وطمعـه
وزهيتى فى غير محلو عيب وعـار

عرفت « حـدى » لاول مرة فى مدينة نفطة سنة 1937 . وقدمنى إليها صديقى الأستاذ م. خريف (1) . وكنا كلنا فى ضيافتها . فرأيتها ترتدى ملابس الرجـال وتتعمم بالشـاش الصحراوى . وبالرغم من أننى لم أتمكن من تقـدير عمرها بالضبط ، فهى بلا شـك قد تخطت العقـد الرابـع . وكانت بيضاء اللون لطيفة الأطراف والحركات . وكانت لا تزال فيها

(*) حدى : شاعرة من أشهر شعراء الجنوب . رغبنا الى صديقنا صاحب الامضاء أن يترجم لنا بعض أشعارها من لهجتها العامية الى العربية فبعث الينا بترجمة أغنية الشمعة (ملاحظة الجريدة) .

(1) المرحوم مصطفى خريف

– رغم البياض الذى ذهب بلون عينيها – جاذبية لا أدرى ما هى، وما سلمنا عليها حتى أخذت تحدثنا بصوت قد تصنعت له لهجة الرجال حتى أصبحت تحاكيهم بدون ما كلفة . وما كدنا ندخن « السبسى » الثالث حتى طلب منها الصديق خريف أن تنشدنا أغنية « الشمعة » فتبسمت كمن يبتسم لخاطرة أو ذكرى ، وكأنما قد عادت الأغنية لذاكرتها بما حولها من أيام شبابها ورفقاء سفرها حين كانت صبية كاعبا تشق الصحراء بين « تاله » و « القمار » و « وادى ريغ » و « نفطه » وكانت كما وصفها فى إذاعة له الأستاذ خريف تجيد ركوب الخيل والمهارى ، وتحذق الصيد وهى تقول عن نفسها :

(راهى حدى عايقه) ... وأشعلت « سبسيا » بدورها . ثم أخذت تنشد أغنيتها – لا بصوت المترجلة الذى كانت تحادثنا به بل بصوت المرأة الذى كانت تنشد به أغانيها قبل أن ترتدى ملابس الرجال . وهى لم تترجل فى زيها تظاهرا أو شغفا بالرجولة ، وهى الأنثى المعتزة بأنوثتها . بل فعلت ذلك لتتمكن من حياة حرة لا يمكن أن تحياها وهى فى بخنوق وحلية .

.... وكان منها إنشاد ومنا إنصات . وحضرتنا أحلام حدى بلسانها تحدثنا عنها فتقول فى رقة وترتيل :

– الأغنيــــة –

« كنا نسير فى الصحراء الواسعة وقد قرب الغروب وأعيانا السير وأتعب جمالنا وذهبت حرارة ريح القبلى بما فى أجسامنا من ماء ورطوبة ، فأنخنا رواحلنا . وذهب كل منا يؤدى واجبه نحو رفاقه يهيىء ما عليه أن يهيئه ، فهذا يجمع الحشيش اليابس ، وآخر قد اتجه نحو البئر . وكنت أنا أهيىء العجين والفلفل للعشاء . وما فينا إلا فرح بهذه الراحة بعد أن أجهدنا أنفسنا فى السير فى الرمال الى حد الملال . وكان يظلنا عن



الريح الحارة عرق من رمل مرتفع . ولم نلبث أن اشتد علينا الظلام ولم يبق من النور إلا بصيص النار تحت القدر . وبالرغم من ثقل الليل ، فقد كنت فرحة به لأنه انتقم لنا من عدوتنا الشمس وغربها كالمطرودة .

« أنا أحب الصحراء كما أحب أمي ولكني أسأمها أحيانا . وأي إنسان لا يمكنه أن يسأم كل هذه الرمال السخينة التي تدخل في كل ما فيك حتى تسد عنك النفس وتخالط حتى طعامك وشرابك . وكم كنت أود ساعتئذ لو كانت هذه الرمال على شاطىء « رادس » شفة للبحر والماء .

« وبعد العشاء أخذنا في طهي التاي لغسل حلوقنا من الرمال العالقة بها . وشرعنا في تدخين التكروري والعرعار ثم إذا أحد رفقائنا قام الى رحله فأخرج منه شمعة وود أن نشرب التاي على نورها . وكان القمر لا يطلع تلك الليلة إلا قرب منتصف الليل .

« وما كان أحقر نور تلك الشمعة الصغيرة واقفة كأصبع الجني في هذا الوادي الواسع !

« على أن نور الشموع كان أحب الأنوار إلي لأن في رقصه بين النور والظلمة رقص الانسان بين الحياة والموت . ومع ذلك فقد طالبت باطفاء الشمعة في تلك الليلة لا كرها لها بل ضنا بنورها على هذه الصحراء المبغضة الى نفسي لكل ما عانيت من السير فيها عامة يومي . وسألني رفيقي : ما يبغض اليك نورها فتحرميننا منها ؟ قلت : إنها في غير محلها إذ لا يليق بهذه الرمال إلا الظلام ورائحة العرعار . قال : وأين تودين أن تريها ؟ قلت : بل قل اى مكان يليق بها . فأعاد علي رفيقي السؤال كما قلت فالهمني ربي الجواب فقلت : في قصر مرتفع كالقصور التي يشيدها السعداء على شواطىء البحر

— والصحراوي يحب الشاطىء حب البحري للصحراء الدافئة — جدرانه من رخام ملون ، وأبوابه مصفحة بصفائح النحاس اللامع وفي أحسن غرفة بالقصر بأعلى طابق منه في سرير من خشب مزخرف بصور الطيور والأزهار منصوب بجانب النافذة المطلة على البحر الصاخب شاب أسمر اللون أسود العينين مرتد ثياب النوم يدخن سيقارته،وهو يستمع الى هدير الأمواج ووقع خطى محبوبته وهي قادمة نحو الغرفة وهو يترقبها بكل ما في ترقب الحبيب من مرارة وحلاوة . ويقول : ألا تأتين ؟ فتجيب في دلال من تعلم انه كلما طال ترقبها زادت الرغبة فيها : اصبر قليلا فالطبيب ينتظر وهنا تأتي الفتاة وفي يدها شمعدان فضي فتضع فيه شمعتنا هذه وتشعلها لتنزع على نورها ملابس النهار وترتدي لبسة النوم وهي تحاول ان تخفي عن عيني زوجها بعض اعضائها حتى يراها في شوقه اليها أجمل مما لو كانت عارية . وكلما طلب منها ان تسرع تذكرت تلك الشقراء الجميلة شيئا وقامت نحوه تتثنى حتى تريه أن جسمها جميل في حركاته كما هو شهي لذيذ عند امتلاكه .

وهكذا بين الذهاب والاياب والتثني تصل الأنثى الى ما تتطلبه الا وهو حدة الرجل وشدة توقه . فيصرخ بها على توقيع أمواج البحر : سأنزل من سريري وأعلمك كيف يجب أن تلبي ندائي . فتبتسم له راضية وتلتحق به مطمئنة . وما تكاد تسكت صراخه بقبلة حتى يتنفس البحر بنسيم (الشرقي) فتنطفىء الشمعة وتموت عند موضع أقدامها ولا يبقى الا البحر والحب ...)

* * *

هذه قصة الشمعة التي أنشدتناها (حدى) في تلك الليلة . وهي ككل أشعار (حدى) في لغتها وقالبها الأصلي أجمل بكثير منها مترجمة . اذ أن في الأشعار نفسا دقيقا من روح الشاعر لا يمكن أن يترجم الى لغة غيرها .

المركن النيِّر

\- 1 -

كان صاحب البرنس الرمادى جالسا أمام منضدة عليها كأس القهوة وأقلام وأوراق • وكان صاحب البرنس الرمادى يدير جريدة أسبوعية انتقادية فكاهية • وكنت ممن كانوا يشاركونه فى تحريرها • وكنا نحررها ونصورها على مشرب هذه القهوة • فما رأيته حتى أقبلت نحوه • وكنت أبحث عنه لأمر يخص طبع الجريدة • جلست قبالته • وسألنى :

\- هل صففت الصفحة الثالثة • هل صففت « أم المقائل » ؟

وكان يعنى بـ « أم المقائل » المقالة الاسبوعية التى كنا نخصصها لنقد أهل الفن وبالأخص المطربة مفيدة • وكان يتشدد فى نقدها • ويقسو حتى يجره النقد أحيانا للشتم المر •

قلت :

\- صاحب المطبعة يقسم بطلاقه أنه لا يضع حرفا على رخامته ما لم يستلم أجر الطبع سلفا • أين الحوالة التى استلمتها البارحة ؟

قال :

\- اسكت •••• دفعت كمبيالة التارزى ، واشتريت بالبقية كبشا •

* * *

كان الرجل عجوزا صغيرا أعنى أنه تجاوز الخمسين ، ابيض شعره • وما زال يحتفظ بقليل من نشاطه • وكان جالسا بجانبنا ، ويستمع الى حديثنا ، وعلى فمه ابتسامة ، ترقرقت على شفتيه الكالحتين ، كما تترقرق الدمعة فى العين المهمومة • ثم استحالت الابتسامة الى زفرة • أعقبها نائحا :

\- الكبش !!!•

التفت صاحب البرنس الرمادى الى العجوز • وسأله مازحا• فى لهجة الجاد :

\- الكبش !!•• أتدرى ماذا أعنى به ؟ هو تلك البهيمة التى تحمل قرنين ، وتجر خلفها شيئا كحجر السراويل ، تلك التى نضحى بها فى هذا العيد المقبل •

\- ويلعب بها صبياننا • آه !••• الكبش •

* * *

كنت أظن أنه يأسف أن لم يبق طفلا ليلهو بالخرفان كما كان يفعل ، وهو صبى • وكان صاحب البرنس وجد ما يسلو به عن التفكير فى أجر طبع الجريدة • وكان العجوز يبكى ويبكى بكاء المسكين الذى لا يملك شيئا • حتى أنه كان يبكى بأعين ناشفة • ولكنه كان يبكى بكل وجهه ، ويديه المرتعشتين • وسأله صاحب البرنس الرمادى فى فضول الصحافى :

\- عم تأسف ، يا عماه ؟

\- كنت أود أن أكون أنا خروفا • أنا نفسى

\- وما يمنعك من ذلك ؟ لعلك فقدت زوجتك !

أجاب ، وهو يتغافل عن تنكيت صديقى الذى لا يحترم

شيئا فى سبيل تنكيته :

ـ نعم فقـدتها · ولكنها ـ رحمها الله ـ تـركت لى طفلين وبنتا · راضية الصغيرة · لها خمس سنوات ·

هنا أسكت صديقى · وأفهمته برفسة من رجلى : أن الرجل جاد فى شكواه ، وأنه مهموم البال ، وبرفسة أخرى ، أفهمته : أن فى هم العجوز رائحة الخرفان فليستدرجه الى الحديث ····

وكأن العجوز انتبه الى ما كان يدور بين ساقينا من رفسات انتهارية واستفهامية ، فتدفق علينا تدفق « مجردة » فى موسم فيضـانه :

ـ نسكن فى غرفة فى بيت لنا فيه أربعة اجـوار · ولكل من أجوارى أطفال فى مثل سن صغارى ، اشتروا خرفانا تلهو بها صبيتهم إلا أنا ··· عفوا إنى أقص عليكما ما لا يهمكما · وإنما لتعلما أنى كنت أحب الناس للمزاح بدرجاته من تحت الصفـر الى 40 فى الظـل · ولكنى نسيت المـزاح وأنسـانيه شقائى · عندما أرجع الى بيتى · وأجد أكبادى كل منهم قـد انتحى ركنا ، كئيبا ، واجما لا يبكى حتى ولا يطالبنى بالخروف كأن الصغار فهموا من سنتين أن لا فائـدة من مضايقتى بطلب ما لا أستطيعه · حقا إنى لأتعس حالا من خرفان الضحايا ·

أنسانا حديث العجوز أمر طبع الجريدة ·

بقيت أنا غارقا فى ذكريات الطفولة عنـدما كنت ألـح فى طلب خروف العيد من أمى المسكينـة · كيسامحنا الله (أنـا والخرفان) ; فلقد كنا نكلفها كثيرا · أما صـاحب البـرنس الرمادى ، وكان عمليا أكثر منى ، فانه أخذ يجـول بنظـراته حولنا كأنه يفتش عن خروف ضائع ، خـروف يجيـد القفـز والنطح ليقدمه لصبية هذا المسكين يلهون به ويبكـونه يـوم العيد قبل أكله ·

التفت صديقى نحو العجوز ، وقال فى لهجته الجادة دائما :

ـ ابشر ··· هل لك حبل ؟

ـ لشنقى ؟

ـ لا ··· لجر الخروف ·

ـ وأين الخروف ؟ لـو وجـدته لحملتـه على عنقـى · أين الخـروف ؟

قالها فى لهجة بين اليأس والعتاب عن هذا المزاح المؤلم ، فى مثل هذا الموقف ·

ـ سأعطيك ورقة ·

ـ : ذات ···· كم ؟

ـ لا ··· ورقة زيارة تقدمها لمن سأخط عنوانها (أريـد صرفك الى غادة ····) على ظهرها (الورقة طبعا) وأنا واثق مائة فى المائة (وهو لا يثق دائما الا بمثل هذا العدد الكامل) أنك سوف لا ترجع خائبا ·

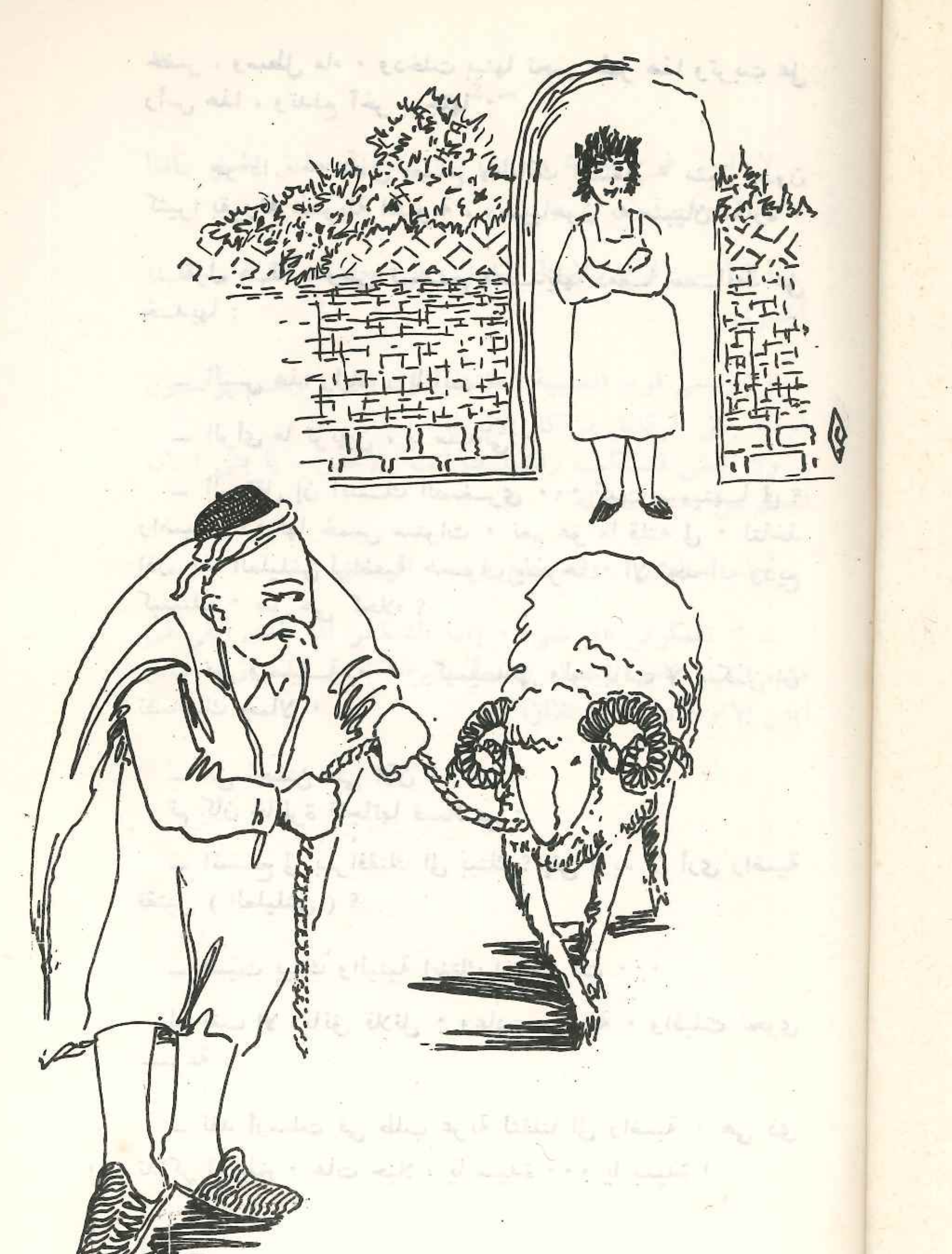
وفعلا ، أخذ قلما ، وخط على بطاقته عنوانا · عنوان من ؟ عنوان مفيدة · عدوته اللدودة مائة فى المائة على حسب تقديره هو ، والتى يخصص عمـودا لشتمهـا اسبوعيـا · تلك التى اشتهرت بقلبها الرخامى وبقساوة لا تضاهيها فيها امرأة ؟ ! مفيدة القينة !!!

قلت مرتابا :

ـ أتظن ····؟ سوف تسخر من بطاقتك ومن العجـوز ! سخريتها بكل شىء ·

قـال :

ـ ألم أقل إنى واثق ··· فى ضمن كل ما أعلمه عنهـا · أعلم أنها امرأة ·



قلت :

– انى واثق مائة فى المائة كالعادة لكن ··· هى ···

وأنا أنظر وجه العجوز المبتسم ابتسامة الشاك فى حديث صاحبى ، والشاك فى ···· العنوان المكتوب على البطاقة · ولكنه بعد أن قلبها مرات ، قام بعد أن قال لصديقى ما يقال عادة للشكر · وقام متجها نحو مسكن القينة يقدم رجلا ويؤخر أخرى · وكنت لما أعلمه عنها ، وعن أخلاقها فى مثل شكه ·

حكى العجوز · قال :

– كانت الساعة الثالثة عندما ضغط اصبعى على الزر المنبه ، وفتح الباب الحديدى حارس مغربى · فقدمت له البطاقة · غاب قليلا ، ورجع تصحبه صاحبة البيت · كانت مشوشة الشعر ، مورمة العينين من تأثير النوم · وكأنها صحت على حس الزر الكهربائى· كانت ترتدى فستانا حريريا عليه رسوم أطيار وأزهار لم أر مثله · سألتنى عما أريد · فأجبتها بالكلمة الواحدة التى تملأ قلبى وفمى « ·· أريد خروفا ··» ظهرت عليها علائم الدهشة · وكأنها استغربت أن يطلب خروف من قينة · وبين التخت والمسلخ ما بينهما من بعد · ولكنها طلبت منى أن أتبعها · تبعتها الى صالون فخم مشوش وضع الاثاث كشعرها ، ثمين الرياش كفستانها · جلست على مقعد واتكأت هى على حرف طاولة· وأخذت تسألنى قصتى · وقصصت عليها خبرى ، وخبر الصبية ، وخبركما · وكانت تنظر الى الأرض ؛ فما رفعت رأسها حتى تبينت من خلال دموعى ، أنها تبكى بكاء هادئا مثلى ، وقالت :

– آه · ليت من يطالبنى بملاعبة خروف ··· هيا ننزل الى الحديقة ·

نزلنا الى حوش خلف الكرمة به أشجار وفيه خراف قائمة ، وأخرى رابضة فى جملتها نا ينوف على العشرة حول أعشاب

خضر ، وسطل ماء · ودخلت بينها تجس ظهر هذا وتربت على رأس هذا ، وتدفع آخر برجلها ·

ـ هو ذا ··· الذى يصلح لأطفالك الصغار · سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة الملتوية ، وسيباهون به صبيان الحارة ·

تقول هـذا ، وهى تمسـح بمنـديلها دمعـا تسـاقط على خـديها :

ـ أليس هذا رأيك ، يا أبت ؟

ـ الرأى ما ترتإين ، يا سيدتى ·

ـ ألم تقل إن ابنتـك الصغـرى ··· كيف سميتهـا لى ؟ راضية ··· لها خمس سنوات · نعم هو ما قلته لى · لتأخذ إذن هذا العليلش لراضية · سوف يسرها · ألا تجد أنه وديع كبنيتك · هل هى كحلاء ؟

ـ نعم وجميلـة ···· كسيـدتى ولو كانت لا يمكـن ان تضاهيك جمالا ·

ـ هي أحسن منى الآن ·
ثم كأن خاطرة فاجأتها فسألتنى :

ـ اتسمح لى بمرافقتك الى بيتك ؟ إنى أريد أن أرى راضية تقتبل (العليلش) ؟

ـ البيت بيتك والبنية ابنتك إن شرفت ···

لم تغب إلا دقائق قلائل · وعادت ملتحفة · واقبلت نحوى مسرعة :

ـ لقد أرسلت فى طلب عربة لتقلنا الى راضية · هى ذى تذاكر المسلخ · هات حبلا ، يا سيدة ··· يا سيدة !

ـ 2 ـ

لا أنسى فرح مفيدة ، وهى ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها الصغيرتين ·

ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهى تحتضنه تارة ، وتقبله أخـرى ·

ولا أنسى فرح الصبية اخوتها بالخـروف ، وهـم يزينـون قرنيه بكل الرقائق من كل الالوان ·
ولا أنسى فضلكمـا وفضلـك أنت بالأخص ، يا بنى ؛ لأن الدال على الخير كفاعله ·

أجاب صاحبى ، وقد خلع برنسه الرمادى :

ـ لا تشكرنى على شىء · إنما الشكـر لله الذى أبقى فى قلب القينة ناحية بيضاء ناصعة ينيرها نـور الحنـان · وهو أبهى الأنوار وأكثرها تلألؤا ·

أمن تذكر جيران بذي سلم ...

- 1 -

كانت أما ، ولكنها بقيت امرأة .

توفي زوجها وترك لها ... طفلين في حضنها ، ودموعا في عينها . فبكته طويلا ، وبعثت بطفليها الى كتاب الحي .

وكان المؤدب رجلا طيبا ، ولكنه قاس شديد ، وكان تقيا ، ولكنه بخيل . وكان يعلم عن هذه الأرملة ما يعلمه كل الجيران : أرملة في الخامسة والعشرين ، جميلة ، زاهية ، ولكنها عفيفة . وكان للمؤدب طفل ماتت أمه ساعة وضعه ، فخطب الأرملة وتزوجها . فأصبح لسيدي المؤدب زوجة وللأرملة ثلاثة أولاد .

وما تزوجت الأرملة بالمؤدب حتى أصبحت الزاهية الضاحكة العابثة ، في مثل ورع المؤدب ، ومثل تقاه : تؤدي الصلاة في أوقاتها ولا تكلم طارقا الا من خلف الباب . ولم يكن لمؤدبنا هذا إلا عيب واحد ـ أو على الأصح ضعف واحد ـ هو حبه لجمع المال جمعا لما . والمال قوام الأعمال ، ولا يقام عنده الدين إلا بالدنيا .

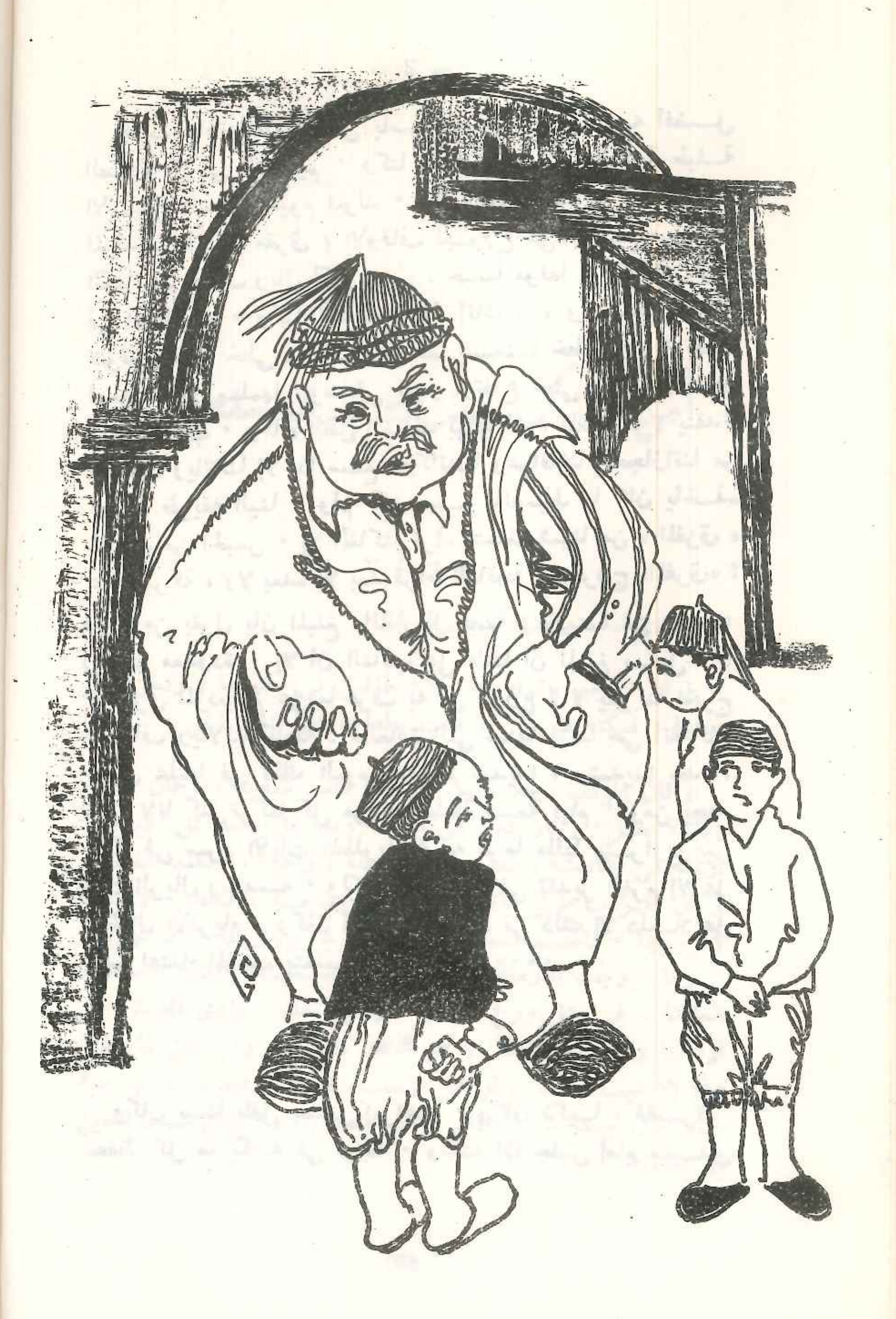
- 2 -

كانت عادتنا أن نحتفل بأسبوع المولد على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . وكنا ننشد القصائد المولدية طيلة الأسبوع السابق ليوم المولد . وفي اليوم السابع منه ـ ليلة المولد ـ يأتي (مفرق) الأوقاف ليوزع على جميع صبيان الكتاتيب نصف ريال لكل صبي ، حبسا موقفا على أذكار المولد في الكتاتيب . وكنا ننشد يومئذ أناشيد ، وأسماعنا مرهفة تتوقع وقع خطى « المفرق » فما سمعنا خطى إلا ارتفعت أصواتنا في سلمها الموسيقي بقدر ارتفاع خطى « المفرق » على سلم الكتاب . وكان الظن السائد بيننا أن « المفرق » لا ينقدنا انصاف ريالاتنا إلا إذا سمع دوكاتنا وعراقاتنا وحجازاتنا من نصف طريقه الينا . ولم تكن نعلم بالضبط ما كان يأخذه المؤدب من الحبس . إلا أننا كنا نراه يتسلم شيئا من « المفرق » على البركة ، ولا يعده إلا بعد قراءة الفاتحة ، وخروج «المفرق» ؛

ففينا من يقول بأن المبلغ مائة ريال فضة ؛ وفينا من يراها ريالات معدودة . إلا أن الغالب على ظننا أن المبلغ ضئيل لأنا كنا نرى المؤدب / على ما عرف به من الورع / لا يتركنا نخرج بأنصاف ريالاتنا كاملة ؛ فالعادة التي سنها بيننا هي أنه كان يجري علينا في ذلك اليوم امتحانا شديدا ، وشديدا جدا ، نظرا لأنا كنا تركنا كل مراجعة طيلة سبعة أيام . ومن يجده يتلكأ في سرد الآيات المطلوبة أغرمه غرما ماليا يتراوح بين ثلث الريال وسدسه . ولكنه لا يتشدد في تقدير الغرم إلا على الأطفال الأثرياء . وكان آباؤنا لا يرون في ذلك إلا دليلا على شدة اعتناء المؤدب بتعليمنا ، أما نحن ....

- 3 -

وكان بيننا طفل يسمى إبراهيم . وكان ذكيا ، فقيرا يحفظ كل ما يكتبه في لوحه . ولكنه اذا جلس أمام سيدي



المؤدب أصابته الغباوة . ولعل خوفه من وقع العصا على أطرافه الصغيرة هو الذى يتركه يفأفىء ، ولا تخرج حنجرته حرفا واضحا . وكان المؤدب يعلم منه هـذا . فكـان يكلف عـادة باستعراضه محفوظات معينة ، وهو تلميذ فى القسم الثالث ، لكن فى يوم التفريق سأله المؤدب نفسه أن اقـرأ ، فلم يقـرأ إبراهيم . وكان عقابه / حسب التعريفة / ثلث ريال . ولم يبق فى يد المسكين سوى (جـوز صـوردى) لا تسـمن ولا تعسل عصيدا .

ورجع إبراهيم الى والده المسكين باكيا . ورجع أحمد ابن امرأة المؤدب الى أمه . وقص عليها ما جرى لابراهيم المسكين فى حفلة التفريق . وكانت تعلم أن والد إبـراهيم فى أشـد الحاجة ، وأنه بدون نصف ريال المفرق لا يحضر عصيدة صباح الغـد .

— 4 —

بعد أن سلمت من صلاة العصر خلف زوجها ، وخرج هو الى مقهى الحى دخلت الى فراشها ، وأخذت ـ وهى التى لم تسرق قط ـ تجس بيدها تحت الوسادة حيث يضع المؤدب كيسه . وفكرت فيما يجب اختلاسه من هذا الكيس لاغـاثة إبـراهيم ووالده . وأخيرا ، أخذت خمس ريـالات ـ ثـلاثة فرنكـات فضية ـ وأرسلت ابنها أحمد فى طلب إبراهيم . وما حضـر واختلت به حتى خرج الطفل يجرى نحو بيته باشا .

— 5 —

كانت العادة أن نفطر صباح المولد جميعا فى الكتـاب من الصوانى التى يرسلها الينا أثرياء الحى من آباء تلاميذ وغيرهم من أهل البر والسعـة ، فتـرى الشقـائل ، والقيروانيـات كالبراكين الهائجة سائلة سمنا وعسلا وقشطة ورغيـدا من

فستق ولبن ، وكان منا من يدخل وخادم يتبعه بصينية ، ومنا يأتى بطبقه بنفسه ٠

وأقبل ابراهيم ذلـك اليـوم بطبـق لم نر قط مثلـه بين الإطبـاق ٠

ـ 6 ـ

٠٠٠٠٠ وماتت امرأة المؤدب لعامين بعد زواجها ، وبكاها المؤدب وبكيناها نحن الصبية ٠

ـ 7 ـ

ولو أنك ذهبت يوم المولد الى مقبـرة « الفـدان » لوجدت رجلا يرتدى ملابس أنيقة ، ويحلى صدره بسلسلـة ذهـب ، جالسا فى خشوع عند قبر حجرى ، وفى يده « بردة المديح » ينشدها بنفس النغمة التى كنا ننشدها بها ونحن صبية ٠٠٠٠ وبين الآونة والأخرى تنحدر دمعة من عينيه ٠٠٠٠

القبر قبر « سارقة الريالات الخمسة » رحمها الله وغفر لها ٠

والرجل الذى لا يزال يبكيها منذ ثلاثين مولـدا ٠٠٠٠ هو إبـراهيم ٠

مجرم رغم انفه

ـ 1 ـ

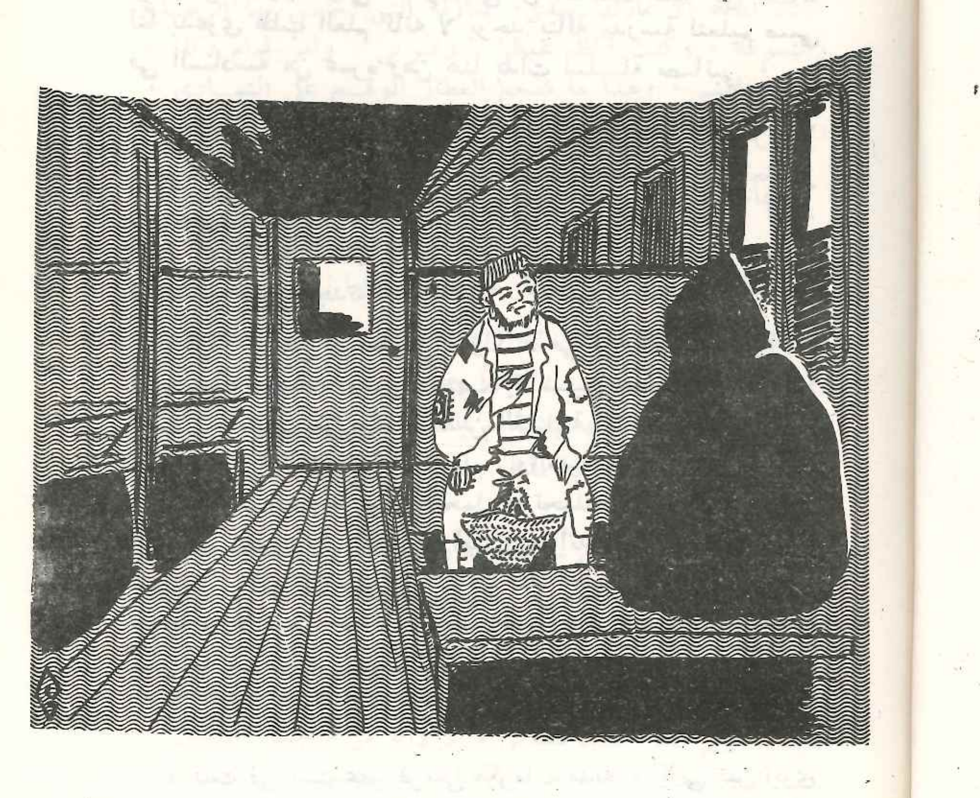
كانت الساعة الخامسة صباحا ٠ وكان جو المحطة غائمـا بسحب كثيفة من دخان القاطرات ، تنيره مصابيح ضئيلـة ٠ وكان قاسم أمام درجات إحدى الحافلات ينظر الى ساعة المحطة٠ فخاطب نفسه قائلا :

« ما تزال ساعة كاملة لموعد قيام القطار ٠ ما أطول الساعات الأخيرة !٠٠٠٠٠ »

جلس قاسم على مقعد فى مؤخر الحافلة ٠ ووضع قفتـه بين ركبتيه ٠ وأخذ فى لف سيقارة بيدين ترتعشـان ٠ وأنست عيناه بظلام الحافلة ٠ وأبصر قبالته شيخا بدينا جالسا ملتفـا فى برنس أبيض نقى ، يعتم بعمة ٠ وكان الشيـخ كتمثـال الشمع لا يبدى حراكا ٠ ولا يأبه لحركات المسافرين ٠ فابتدأه قاسم بالتحية :

ـ صباح الخير يا أبى الشيخ ٠

ولم يرد الشيخ التحية لا بأحسن منها ، ولا بمثلها ٠ وأسر قاسم فى نفسه : « هذا عجوز قليل أدب ٠ لكنى مجبـور على



مرافقته ما دامت الحافلة خالية الا منا الاثنين » ·

أشعل قاسم عود وقيد لإيقاد سيڤارته · ورأى على بصيص نورها وجه الشيخ · وكان وجها وديعا حقا يوحى الثقة بصاحبه ، وقورا بذقنه الأبيض ، وعينيه اللامعتين · ورأى الشيخ بدوره قاسما ···· وابتسم له ·

كان قاسم فى الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، قمحى اللون ، جذاب الملامح ، رغم كآبة تعلو وجهه ، وذقن لم يحلق من أيام ، يرتدى بدلة زرقاء قديمة ممزقة الأطراف ، عليها من الرقع ما على الخرائط الجغرافية من ألوان ·

شجعت ابتسامة الشيخ قاسما لاعادة فتح الحديث مع زفيقه العجوز ، لا لقتل الوقت والطريق ، بل لأنه كان فى حاجة الى بث شكوى كتمها مدة طويلة · وأخذ فى إلقاء حديثه دفعة واحدة ، وبلا مقدمة كما يطرح الحمال حمولته ثم ينفض كتفيه من غبارها · قال قاسم :

ــ أوه !··· يا أبى الكبير !··· لا يدرى الحياة من لم يبتل الحياة !··· ما أقساها ··· وما أمر طعمها ! لقد حملت من أعبائها ما تنوء بحمله الجبال الرواسى · لقد ظلمت ، ومنيت بعلل ، روعت منها طول حياتى حتى تركتنى أنهش قلبى ، وضميرى ، كما يفعل الثعلب عندما ينهش رجله بنابه ليتركها للفخ وينجو بالباقى · لقد زلت بى قدمي الى هوة الاجرام وأنا برىء · آه ···

وكان قاسم يتكلم بصوت متهدج فى لهجة من تعود أن لا يتكلم جهرا · وكانت سيڤارته ترتعش بين شفتيه · واستأنف حديثه :

ــ لا تنكر على قولى إني مجرم وبرىء · أنا هذا المزيج

الغريب • لقد قست على الأقدار استغفر الله ، فلقد لاقيت كل شيء ضدى مذ حملت بى أمى• • مات والدى قبل أن أرى الحياة • وماتت أمى ، وأنا صبى • وكفلنى أخ أحمق بخيل • فكر ، وأنا فى السادسة ، أن يقصينى من تاله ، مسقط رأسى ليستأثر بالارث دونى ، فأرسلنى الى العاصمة عند ابن خالة لنا بدعوى طلب العلم كأنه لا يوجد بتالة مدرسة لتعليم صبى فى السادسة من عمره ومن هنا بدأت سلسلة مصائبى •

« كان عمر الوذرى ابن خالتى رجلا طيبا ثريا لا أذكره إلا بخير • قبلنى بين أولاده كواحد منهم ، وسهر على تعليمى وتربيتى كالأب الرحيم • آه يا أبتى !•• ما أشقانى • لقد كنت أحس رغم حنان قريبى بنوع من الحنان ينقصنى ويترك فراغا فى قلبى وجدته •

« أراك تصغى الى حديثى ، ولكنك فى قرار نفسك تهزأ من فتى يشكو الحياة ، ولم ير منها إلا سنين معدودة • ولكنى تألمت ، وعانيت فى هذه السنين القليلة الشىء الكثير • إنى أصرخ الآن أمامك ، وأمام العالم ، والعدالة ، والقضاء بأنى مظلوم ، ولم أفعل ما يوجب تحمل ما تحملته • لقد كنت سجينا أجر قيد الحديد ولم أطلق إلا أمس •• أتدرى ، يا أبى ، لماذا سجنت ؟ لأنى دافعت عن شرف فتاة أحبها • أراك لا تحير جوابا ، ولا تبدى حراكا • معك الحق : فانى ابتدأت حديثى بخواتمه ، وسأقص عليك الآن أولا فأولا :

— 2 —

« كنت فى بيت عمر قريبى مكرما ، مدللا ، كأنى بين أبوى وإخوتى • وكانت بين بنات عمر فتاة فى مثل سنى جميلة ، ذكية ، علقت بها ، وعلقت بى ، ونحن صبية وأنستنى بعطفها ، وحنانها ذل اليتم • وملأت فراغ قلبى • تحاببنا السنين الطوال حبا نقيا ، طاهرا من كل الادران حتى أصبحنا لا نفترق إلا في ساعات الدراسة • نعم ، يا أبى ، إن هذا الشقى الذى

تراه كان تلميذا نبيها فى مدرسة ثانوية • وكانت هى أيضا تتبع دروس التطريز والتزويق فى « ليسى » للبنات • وكنت أصحبها فى ذهابها وإيابها من المدرسة •

« وكان فى طريقنا الى مدرستينا دكان عطار لا تمر الفتاة أمامه الا غازلها ببذىء المغازلة التى اختص بها الرعاع والسوقة • وكنت أكظم غيظى ، وغيرتى • وأمر أمام دكانه مرور الأصم • وهذا ما شجع العطار الوقح على التمادى • وهذا ما ملأ كأسى حتى فاضت •

« فاضت ذات يوم ، ولم أتمالك نفسى من الدخول الى دكانه ، ولم أشعر إلا والسكين الذى يستعمله فى تجارته فى يدى اليمنى ••وصرخ العطار ، وفتح دولابا ليخرج سلاحا ، وسبق السكين ، فدخل قليلا فى ذراعه • وصرخ العطار ، وفزعت غوغاء الشارع ، والتفوا حولنا • وكنت فى مثل نوبة المحموم ، لم انتبه منها إلا أمام القضاء • واللعين يدعى أنى أصررت على قتله لسرقة ما فى صندوقه من مال ، وهو ثرى وأنا فقير •

« وشهد العون الذى ساقنا أنه رأى السكين يلمع فى يدى ، ونية القتل تلمع فى عينى • ورأى الدولاب مفتوحا ، وجرحا فى ذراع العطار مفتوحا •

« أما أنا ، يا أبتاه ، فلقد كنت كالمصروع أفأفىء ، ولا أقول شيئا • ولم تحل عقدة لسانى ، إلا وأنا فى سجن ضيق • بكيت ، انتحبت ، وصرخت الى رفقاء السجن : إني برىء ! وهزأوا منى •••

« كانت كل القرائن ضدى •••• وحكم على بالسجن خمس سنوات مع الشغل الشاق • وعملت في « صواف » !• أنا • أنا الذى لم أترك المدرسة إلا للسجن •• فهل الذنب ذنبى إن كنت خلقت لأحبّ تلك الفتاة ؟ وهل الذنب ذنبى إن كانت

دمائى لا تحتمل سماع مغازلات العطار ؟ وهل الذنب ذنبى إن كان سكينه حادا يدخل فى لحم البشر كما يدخل فى الصابون والاجبان ، وبنفس السهولة ؟

« تركت السجن بعد مضى الخمس سنوات قضيتها بين المجرمين وسمعت من أقاصيصهم ما سمعت • فهل الذنب ذنبى إن كانت أبواب السجن لا تغلق إلا على المجرمين ؟

« لم أعد الى بيت قريبى ، وأنا أعلم أنه لا يقتبل متهما بالقتل والسرقة كما كان يقتبل التلميذ الذى كنته قبلا • وعلمت بأن الفتاة قد زوجت للعطار ••• الوقح ••• الثرى الذى لم يدخل السجن مثلى ، وكان هذا جزائى منها ••••

« لم يبق كثير بينى وبين الهوة التى تفصل بين عالمى الفضيلة والاجرام • أدمنت شرب الخمرة وقد قيل لى : إنها تعين على النسيان • فهل الذنب ذنبى إن كانت الخمرة لا تعين إلا على الكسل ؟ وعدت الى السجن والعمل فى حقول « جفار » وملاحة « حلق الوادى » ، وعدت الى تأثيرات أوساط الاجرام » •

هنا •••• فى سماء المحطة زفير بخار القاطرة مؤذنا بقرب تحركها •• وبدت أشعة الشمس الذهبية زرقة الفجر القاتمة • ولم يتحرك الشيخ من حديث الصعلوك ولا من زفير القاطرة الذى يصم الآذان •

واتسعت حدقتا الصعلوك ، ودخله شك فى أمر مستمعه • ووقف الصعلوك • ومسك كتف الشيخ متسائلا :

– « يا أبى !••• يا أبى !••• أسمعت قصتى ؟ »

أجاب العجوز :

– « أبو ؟ ••• أبه ••• عبا ••• أبو ••• »

وارتمى قاسم على مقعده مغمض الأجفان ، وهو يقول :

– « آه حتى هذا ! لقد كنت أشكو بلواى الى أصم أبكم ! » •

وتحركت دواليب القطار •

قتلت غالية ••• !

– 1 –

جلس رجب على صندوق أمام المخزن ، وهو ينظر الى فرسه « الأزرق » ويقول له :

– كل علفك ، يا صديقى ، إذ لم يبق لى صديق غيرك أنت أحب الى منها •

أحب اليه منها ! لا • لقد كذب رجب • فغالية أحب اليه من نفسه ولا يعيش إلا لها وبها وبحبها • ولولا الحب الذى ملك كل حسه وملأ كل قلبه لما ترك حقله فى طبربة ، وترك ألعاب الفروسية والغناء فى الأعراس • لقد كان رجب أشهر فرسان الشمال التونسى • ومن أجل حب غالية استقر رجب بالعاصمة ، واستبدل سرج (الأزرق) بعربة نقل •

– نعم أنت أحب إلى منها ، تلك التى من أجلها تركنا حلبة السباق ، ونزلنا الى جر العربة الثقيلة التى لم نخلق لها ، يا أزرق • أليس من أجلها رضيت بتحمل قرقعة العجلات خلفك يا أزرق ؟

وكان (الأزرق) يهز رأسه بين الآونة والأخرى ، ويحرك فكيه كأنه يصادق على حديث مولاه ، وكأنه يأسف على الأيام

التى خلت والتى لم يكن يحمل فيها إلا السرج المطرز واللجام الفضى • ثم يعود الى علفه ممتثلا •

ويعود رجب الى محادثة فرسه :

– أين تلك التى كانت تخضب (سبيبك) بالحناء يا أزرق ؟ لقد مرت أيام لم أرها فيها ، تلك التى لم تكن تصبر على فراقى يوما واحدا • أما زلت تذكرها ، يا أزرق ، تلك التى كانت تطعمك السكر بيدها اللطيفة ؟ أتذكر مولاتك غالية التى هجرتنا ؟

وكان الفرس يشاطر مولاه لوعته فيصهل صهيل الألم بنفس قصير ، ثم يعود الى المذود •

ويعود رجب الى التفكير فى حب غالية ، وفى صد غالية ، ويحس بمثل وخز الابر فى قلبه ، ويقول مخاطبا نفسه وفرسه :

– لعلها علقت بغيرنا ، يا أزرق ؟ من هو ؟ آه الويل لمن يتحدى رجب ويزاحمه فى حب غالية !

– 2 –

أما غالية ابنة عم رجب وخطيبته ، فهى جميلة ، جذابة ، مزهوة ، مرحة ، مشغوفة بخطيبها الفارس الجميل شغفه بها • ولم يبق لإقامة حفلة العرس إلا ختم (عام الحزن) على وفاة والد رجب •

وكان رجب لا يقيم فى البيت مع عائلته إلا أنه يذهب كل يوم لرؤيتها •••• ومرارا •

حدث أن غضب مع عائلته ، فلم يذهب الى البيت منذ ستة أيام ، هى كست سنين عنده • وكان يتوقع فى كل ساعة طيلة هذه الأيام أن تأتى غالية لرؤيته ، أو تبعث أختها الصغرى لتنسم أخباره • ولم تفعل ، ولم تسع لازالة الخلاف ليعود الى البيت ويعود لها • فهل سلته ، ولم تعد تحفل بحضوره أو غيابه ، أم علقت بغيره كما أوحت له الغيرة ؟

— 3 —

خرج رجب من المخزن ، وقصد غابة البلفيدير • وكانت عشية يوم راحة ويوم صحو فى مثله يحج القوم الى غابة البلفيدير ، وتضيق بهم مماشيها نسوة ورجالا ، فتيانا وشيبا ، أطفالا ورضعا يمرحون فى حضن الطبيعة ليتنفسوا من نسيمها المجدد للحياة •

اتخذ رجب مكانا غير بعيد من الطرقات التى يمر بها الرائحون والغادون : فمن أم وبنيها ، ومن زوج وزوجها ، ومن غادة هيفاء تتأبط ذراع خطيب أو حبيب ، ومن شيخ وشيخة يشتركان في جميل الذكريات ، إلا رجبا فلم يكن يصحبه إلا فؤاد مكلوم تحرقه نار الغيرة • فلم ير من الناس ومرحهم إلا ما يزيد فى لوعته • فهم أزواج سعداء ، وهو الفرد المهجور •

وأقبل الغروب • وازدادت وحشة رجب فرجع الى المدينة يجر أقدامه جرا ، هائما ، لا يدرى أية جادة يتخذ • وقادته قدماه الى الحارة التى فيها البيت حيث تسكن الحبيبة • ووجد نفسه فجأة أمام الزقاق •• وأظلمت الدنيا •••

وقف يفكر فيما يجب أن يصنع : أيطرق الباب ، ويطرح من كبريائه أمام عظمة الحب ؟ أم يترقب ليلة سابعة لعل غالية ترسل من يستدعيه ؟

رأى شبحا ملتفا فى برنس أبيض يخرج من البيت فى حذر من لا يود أن يرى •

هو هذا الحل ! فهذا المتسلل هو الذى احتل مكانه من قلب غالية • إنها سلته ، ولم تحفل بغيابه لأن قلبها فى قبضة هذا الذى يخرج من لقائها خروج اللص • وفعلا فهو اللص الذى سرق لرجب أثمن ما كان يملكه فى هذا البيت •

لم يتمالك رجب من إخراج مسدسه ، وتصويبه فى حركة آلية صوب لابس البرنس ، وأطلق عيارا على المعتدى الأثيم •

وسقط الشبح على الأرض • وود رجب أن يرى وجه هذا

الغريم ، وهو يلفظ آخر أنفاسه •

ورأى ••• ويا لهول ما رأى !••• رأى ما جعله يسقط بدوره كالمصعوق بجانب ضحيته وهو يصرخ :

— « أنت ••• أنت ••• غالية ••• ماذا صنعت بنا ؟ قتلتك بيدى لقد قتلت حبى بيدى !••• »

— أنت ••• أنت ••• ليسامحك الله !

— : لماذا تخرجين هكذا ؟ بهذا البرنس ؟

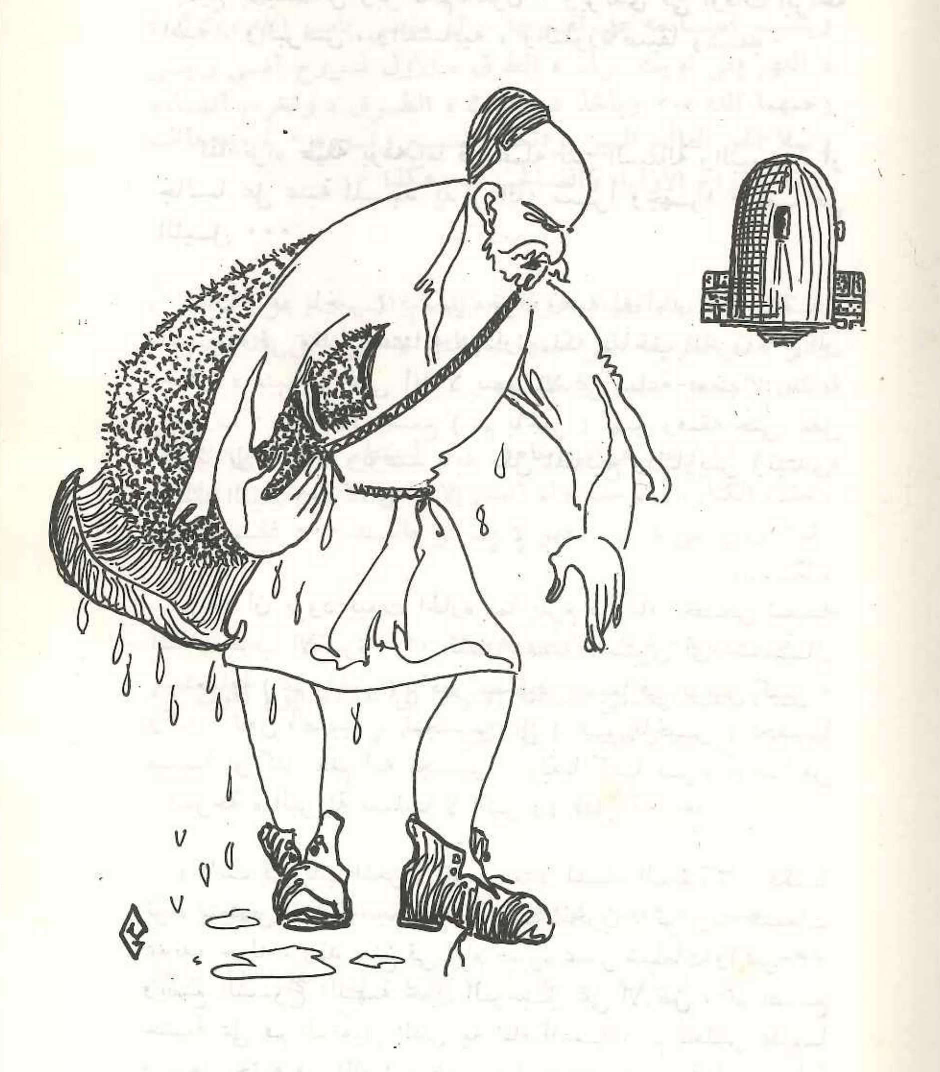
— : لأتقى أعين الرقباء • لم أطق صبرا على غيابك قد طال •

— : رباه ! ماذا صنعت بك وبنفسى ؟

— : كنت آتية الى •••••

وأغمى عليها • ورأى الدم يسيل من نحرها على شالها الأخضر وضحك رجب ضحكة رنانة ، ضحكة الجنون •

وماتت غالية بعد يومين • وذهبوا برجب الى مأوى المجاذيب • رحمها الله •



موت العم « باخير »

ـ 1 ـ

كان فى الحارة التى ولدت فيها عجوز سقاء يسمى « العم باخير » • وكان رجلا خيرا ، طيب القلب ، ورعا ، لم نعثر له على زلة قط • إلا أنه كان شاذا فى كل شيء • ولعل فى شذوذه ما يحببه الينا ، نحن صبية الحارة ، ويثير فينا استطلاعنا ، ويجعلنا نترصد حركاته كلها •

* * *

قلت : إن (عم باخير) يعمل كسقاء • وكان يدخل كل بيوت الحارة يشاهد بحرية كل نساء الحارة ، يزود واحدة بالماء • ويطلب من الواحدة أن تعيره مهراسها ، ومن ثالثة أن ترقع له ثوبه • وكن جميعهن يقتبلنه فرحات باسمات •

كان (عم باخير) خفيف الروح ، دميما دمامة عليها مسحة من جمال التناسب ، مما يجعل دمامته مقبولة • فالأنف البارز المكور تعلوه عينان حمراوان ، تحتهما فم واسع ، له شفة سفلى متورمة متدلية فى مستوى أفقى مع ذقنه • وعلى الجميع لون من ألوان الاشراق وطلاء من البشر • ومما يزيد فى خفة ظله أنه كان لا يملك صندوق ملابس بل كان يرتدى كل ما يشتريه •

فتراه مثلا معتما بعمة بيضاء عليها مجرمة حمراء ، ثم يربط الجميع بخيط من وبر قاتم اللون • ويرتدى فى أوقات الراحة الجبة ، والبرنس ، والقشابية ، والبلوزة صيفا وشتاء •

* * *

كنّا نراه طيلة يومه إما فى عمله بين السبالة والبيوت ، أو جالسا على عتبة المسجد يذكر الله سرا وجهرا • أما فى الليل •••

كان (عم باخير) يسكن مخزنا وهبه له أحد أثرياء الحارة ليستغله فى مقابل اعتنائه بحمار يملكه صاحب المخزن • وكان حمارا « منبها » أعنى أنه لا ينهق إلا فى ساعة بعينها : ساعة الغروب • وما يكاد يسمع (عم باخير) نهيق رفيقه حتى يقفل راجعا الى المخزن ويوصد بابه بكل المفاتيح والمتاريس وتبتدىء حياته الليلية •••••

* * *

وبعد أن يزود بيوت الحارة بما يلزم من ماء يخصص لنفسه الثلاث قرب الأخيرة ••• قلت : لنفسه ، وسترى أى استعمال يستعملها (عم باخير) ؛ فهو يسكبها جميعا فى برميل كبير • وكنا ، نحن الصبية ، نتجسس على (عم باخير) تجسسا مشينا لو كنا نعلم أنه تجسس ، ولكنا كنا نراه نوعا من « الفرجة » البريئة تسلينا لا أكثر ولا أقل •

وكانت فى باب المخزن ثقوب بعدد أعيننا الصغيرة • فكنا نراه يتعشى أولا ما يجود به صاحب المخزن ، ثم يوقد شمعات عديدة حوله ، وقد تبلغ فى أيام يسره عشر شمعات وأكثر ••• ويضع الشموع الملتهبة حول البرميل على الأرض ، ثم يضع خشبة على فم البرميل الذى به الماء أفقيا ، ثم يجلس عليها واضعا رجليه فى الماء • ويضع حول عنقه مسبحة ذات مائة

حبة • ويأخذ « قصبته » يربت عليها بكل حنان ، وينفض ما قد علق بها من غبار ، ويضعها بكل تؤدة وخشوع على شفتيه • ويضع أصابعه على ثقوبها ، ثم يسمى باسم الله ويقول : « اللهم إنى نويت عزف « الطرق » الأول لروح أمى وأبى رحمهما الله »•• ويأخذ فى عزف « الطرق » وتخرج أنغامه وتملأ الجو الفائح النير برائحة الشمع ونوره • ثم يستأنف عزفه لأرواح الأولياء والصالحين • وهكذا ••

* * *

كثيرا ما نهاه فقهاء الحومة ، وإمام المسجد عن التزمير ، وعن هذه الطريقة التى سنها ، والتى لا تقربه الى الله زلفى • وكان لا يحفل بنهيهم ويجيب :

— « أنا رجل عامى جاهل ، لم أستطع حفظ شىء • لقد دخلت الكتاب وخرجت ولم أتعلم إلا محى الألواح ••• وإن لم يقبل ربى منى عزفى ، فهو لا يضر بأحد ••• غفر الله لى ولكم » •

ثم يقول ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « ربما رفعتنى الملائكة الأبرار الى البقيع يوم أموت •• على توقيع مائة « قصاب » أو أكثر ••• »

ونجيب نحن الصبية :

— « ربما ••• »

ويستعيذ « الفقيه الورع » بالله من شقاوتنا ، وجهل (العم باخير) ، ويقول :

— « إن الزبانية أنفسهم لا يحفلون بموت مثل هذا الزمار الجاهل والعنيد المغرور » •

— 2 —

حزنت الحارة كلها يوم لم تر (عم باخير) أمام السبالة وا أمام المسجد • وعلمنا من نسوة الحارة أنه مريض بشلل حل برجليه • وأن الثرى صاحب الحمار ، وكان خيرا بارا ، حمله الى بيته وأوكل الى بناته الأبكار — وكن جميلات عفيفات — شأن تطبيب العجوز والسهر عليه وخدمته • وقلن أيضا : إن الابكار الثلاث سهرن على علاجه كما يسهرن على خدمة قريب عزيز •

* * *

مات (العم باخير) مساء يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أمام الفتيات ، وهن يسقينه ماء الزهر بأيديهن العاجية ، غفر الله له •

أما فقيه الحارة وإمام المسجد ، فما زالا يرزقان من أحباس الأوقاف ، أطال الله عمرهما •

— 3 —

لاقيت فى هذه الايام أحد رفقاء الصبا ممن كان يصحبنا الى سماع تزمير (العم باخير) ، وتذكرنا تلك الايام ، وتذكرنا ثقوب باب المخزن ، وتزمير « أطراق » العجوز وشموعه وسألته :

— ما فعلت الأيام بالمخزن ؟

قال :

— اكترته إحدى جمعيات الموسيقى • أرأيت أعجب من هذه الصدف ؟ حقيقة لا عجب فى أمر الله !

سهرت منه الليالي …

— 1 —

كانت الخالة امرأة ممتلئة الجسم ، يتحرك كل جزء منها بمفرده ، وهى تطلع درج السلم لاهثة ، شاخرة ، تتصبب عرقا ، وهى تصرخ مداعبة ابنة أختها من قبل أن تراها :

— : أين أنت ؟ أين ؟ ما هذا بسلم ! هذا الصراط ! أين أنت يا فتاتى ؟ لعن الله هذا الشحم الذى يعوقنى عن التنفس •

— : خالتى ! سلامتك يا خالتى ! تفضلى • هو ذا المقعد الذى يريحك ، ويريح شحمك • لكن دعينى أقبلك •

وتقبلها ، وتجلس الخالة على المقعد ، وهى تزيح عن وجهها العصابة السوداء • وتتفرس قليلا فى وجه زكية ابنة أختها وتسألها :

— ما هذا ؟ ما لعينيك مورمتين ؟ أكنت تبكين ؟

— هو ذاك •••• لا يمكن أن أخفى عنك شيئا يا خالتى •

— ما أبكى عزيزتى ؟ ما أبكى صغيرتى ؟ قولى لخالتك الحنون كيف ؟• أتبكين فى العام الثانى من زواجك ؟ هى أخلاق أمك المسكينة ، وهى فى دار الحق ونحن بدار الباطل ، تتجلى فيك •



لقد كانت ـ رحمها الله ـ ولوعة بالبكاء ، احكى لخالتك كيف تعيشين ••• مع •••

ـ : كما وددتنى أن أعيش فى جهنم منذ ألقيت بى فى جحيم هذا الزواج •••

ـ : هذا زوجك •••

ـ : زوجى ؟ قولى جلادى ، فقلبه قلب جلاد ••• وهو يقتل كل يوم شيئا منى • ستجديننى ميتة جامدة فى زيارتك المقبلة إن لم أذب وأسل دموعا من عينى •

ـ خففى عنك••• احكى لى الاول بالاول ما وقع بينكما•••

ـ إنه رجل خبيث أحمق ، سكير يسكر كل ليلة ، ولا يأتى بعد كل منتصف ليل إلا ليعربد على وعلى طفلى • آه ! لو لم يكن حمادى ابننا بيننا !•• آه يا خالتى لقد كان فى أول سكراته يشتمنى شتما مقذعا ، وينعتنى بأقبح النعوت ولا يسمينى إلا بأخبث أسماء الأسماك والطيور : فاننى « حسب الحمار » بين الطاووس والوطواط ، أو بين التـن و « النـازللى » القبيـح الرأس • ثم يجبرنى على إيقاد النار وطبخ « المشلـوش » بعد الساعة الثانية من منتصف الليل ، وإلا فاننى استحيل فى نعته الى حمارة لا تجيد الطـ ـخ ••••

ـ أعوذ بالله ! أعوذ بالله ! هذا شيطان !•• وشيطان بذىء القول !•••

تقول الخالة هذا ، وهى تنظر شزرا الى باب غـرفة النـوم الموصود كأنها تسأل قريبتها بعينها إن كان ما زال نائما أم هل خرج لتعرف أى طريق تسلك فى نقدها له ؟

وتجيب زكية :

ـ إنه لا يصحو إلا بعد منتصف النهار •••• كعـادته • وإن صحا ، فلكى ينام ثانيا !

ـ ينـام ؟

بين الكتب والجرائد التى تأخذ كل وقته · فانه لا يكلمنى إلا وهو سكران · فان صحا فهـو للكتب والاوراق · هى ذى تملأ كل الغرف · والويل لى إن فقد منها ورقة · ليتك زوجتنى أميا مثلى ! إن عشرة هذا لا تطاق ·

ـ : لا تطاق !·

ـ تصورى أنه رجع ليلة أمس يترنح سكـرا ، ورائحتـه كرائحة النسناس ، وعثرت رجله بكتاب ألقاه الطفل المسكين ، ولم انتبه له ، فصب جام غضبه على الطفل ، ولطمه لطمة كادت تخرج روحه ، وودت افتكاكه منه ···

ـ الطفل أم الكتاب ؟

ـ الطفل يا خالتى !·· حمادى !·· فلطمنى أنا بدورى !

ـ كيـف لطمـك أنت ، ولا تقـولين لى هـذا من الأول ؟ آه ···· إن الأمر أهم مما كنت أظن ، كيف ؟ أيرفـع يـده على امرأته وأم ولده ، هذا لا يطاق··· وصلنا الى اللطم ! اسمعينى يا فتاتى · أنت صغيرة ، فافتحى أذنيك الى نصـائح خـالتك المجربة : لقد زففت الى ثلاثة رجال ، وأنا أعلم الناس بهم · إن الرجل الذى يضرب امرأته ليس برجل (تحتـد الخـالة كـل الحدة ، وتصرخ فى ابنة اختها) اسمعى ! اطلبى طلاقك منه ، وسنحاكمه ، ونطالبه بتعويض ، وندخله السجن · إن القضاء ، وكل الشرائع (الخمسمائة دين) لا تبيح لأى رجل كان لطم امرأة ضعيفة · اطلبى طلاقك منه ! قلت لك ··· اذ ليس بعد اللطم من معاشرة !

ـ : الطلاق هو ذاك ·

ـ : « أتصبرين على معاشرة هـذا الفظ ؟ ! قلت : إنـه أحمق ، قلنا لا بأس ككل الرجال · قلت : إنه يسميك بأسماء البهائم قلنا لا بأس سيغير نعوته وتحسن معـاشرتك لـه · قلت : إنه سكير ، قلنا : لا بأس ستنتفخ كبده ويترك الخمرة ·

قلت : إنه يحب مطالعة الكتب ، قلنا : لا بأس وهى وإن كانت ضرائر لك إلا أنها أخف وطأة من ضرة بشرية واحدة · لكن وصلنا لسوء المعاشرة والضرب ··· اطلبى طـلاقك ، وأنـا الضمينة بحصولك عليه من أقرب السبل ·

ـ كيف يا خالتى ؟

ـ : « إن كان دمك هذا دما مثل الذى يجرى فى عـروقى (تقول هذا وهى تنظر الى معصميها المكتنزين ، والتى ضاقت بهما الأسورة الفضية) إن لم يكن دمك ماء وسكـرا وعصيـر برتقال ، وإن كنت حقا ابنة اللبوة منجيه اختى ـ رحمها الله ـ فستقومين توا الى لم أدباشك وتخرجين معى الآن · وعلى أنـا البـاقى ·

ـ 2 ـ

تخجل زكية ·· وتصعد بصرها لباب الغرفة ، غرفة النوم ، وتصوبه الى الارض

ـ : خالتى لا ترفعى صوتك !

وتتحمس الخالة · ويهتز كل جسمها اهتزازا لا تجيـده إلا المرأة الشعبية ، وهى غضبى · وتصرخ :

ـ لا أرفع صوتى ؟· سأرفع صوتى ويدى ! لا أرفع صوتى ؟ ولماذا من فضلك ؟

ـ لئلا تزعجى ··· تزعجيه !

ـ أزعج من ؟

ـ هو · دعيه ينام ··· المسكين ··· لقد سهر كثيرا ليلة البارحة يا خالتى ! ··

سر الغرفة السابعة

— 1 —

قال الطبيب ، وقد جذبناه بشتى الحيل للخروج من صمته :

— إن سر المهنة يمنعنى من إفشاء أسرار زبائنى ، إلا أننى سأقص عليكم قصتى هذه لما فيها من عبرة ، ولا أحتفظ لسر المهنة إلا بالأسماء الحقيقية للأمكنة والأشخاص . وأقول : إنى كثيرا ما استمعت الى خرافات العجائز مما فيها من خوارق أحداث الأغوال والمردة . وكما قال شاعرنا سكاليزى : « قد أصدق الخرافة عندما تخرج من فمك يا أمى » . ولعل فى القليل الذى سمعته من خرافة طباختنا العجوز ، وهى تقصها أمس على أطفال البيت ما ذكرنى بقصتى هذه .

وقال أحدنا :

— ما كانت خرافة العجوز الطباخة ؟

قال :

— كانت تروى لهم قصة الساحر الذى اختطف ابن السلطان ، وطار به الى القصر المسحور الذى به سبع غرف كلها ذهب ، وفضة ، وعاج ، وآبنوس ، ولابن السلطان أن يدخل أيها شاء ، وأن يصنع ما شاء بما شاء منها ، إلا الغرفة السابعة ، فمحجورة . وتوعده بالقتل إن حاول حتى إيلاج مفتاح فى كوتها .

ثم سكت ، وتركنا متشوقين الى قصة شوق ابن السلطان رؤية ما فى الغرفة السرية . ثم بعد أن مسح نظارتيه ، وأشعل لفافة ، أتم حديثه قائلا :

— « كنت منذ سنوات عالجت فى مستوصفى امرأة من مرض ما سرى خبيث يقتضى الحقن أشهرا متوالية . وكانت جميلة لولا ان شوه الداء من شفتها السفلى . وكانت !.. كيف أنعتها لكم ... « خضراء » ... لقد فهمتم بلا شك ، أعنى خفيفة ... وفعلا كانت خفيفة الروح تجيد الحديث فى أدب واتزان لم نعهده من مثيلاتها .

« قلت إن تطبيبها يقتضى زيارتها مرارا كل أسبوع للمستوصف حتى أنست بها وأنست بحديثها . ولايقلقنى كثيرا أن أسمعها تقص ما تعانيه المسكينة من مرير العيش . وقد فقدت الفائض والبعض من رأس المال . وهذا ما جعلنى أعالجها مجانا . لا أقول هذا تبجحا ، وإنما الواقع أنى كنت أحنو عليها بجاذب لم أدر مصدره . وكثيرا ما سألت نفسى : أى دافع دفع بهذه المسكينة الى حياة استهتار وشقاء . وكنت أتصورها لو كانت ربة بيت ، وأم أولاد ، وزوجة عامل مستقيم .

« تماثلت من البرء وانطفأت كل عوارض ذلك الداء « الوقح » . وأتتنى يوما تشكرنى على عنايتى بها . وقدمت لى « مبسم » صدف مطعما بالفضة ، وقد لاحظت كثرة تدخينى ، فقبلته ، وقد أعجبنى لطيف ذوقها فى الاختيار .

ثم قولها :

— هذا أقل من أن يقدم اليك .

فضحكت وقلت :

— « زيدينى — اذن — هدية أخرى » .

خجلت المسكينة ، ولم تدر ما عنيته . وفتحت فمها

وعينيها ، مذهولة • فأنقذتها من حيرتها بتقديم كرسى لها وبقولى :

ـ لا • لا • ليس ذاك ••• سأطلب منك شيئا أثمن بكثير من كل هدية مادية • أريد منك أن تعطينى شيئا من سرك ••• سر حياتك •

أما هى ، فكأنها لم تفهم • وعدت الى تفسير سؤالى :

ـ « أريد أن أعلم أيمكن هذا ، ولم تخنك ذاكرتك عما جذبك الى هذه الحياة •• أعنى ••• »

اغرورقت عيناها دموعا ، وألقت بنظرها الى زجاج النافذة اللاشفاف وكأنها ترى فيه شاشة فى دمعها من أشرطة لطفولتها وصباها من شقاء وسعادة •

ـ « لا بأس عليك فالدموع تطهرنا من كل دنس ، وما دامت فى عيوننا دموع فلا بأس علينا » •

قلت هذا بصوت مرتعش وقد اخضل جبينى بالعرق ، وللدموع وقار • حتى ••• دموع « الخضر » •

ـ 2 ـ

قالت :

ـ : « لم أتصور مثل هذه الحياة ، وأنا فتاة ولو حلمت بها فى نومى لصحوت فزعة الفزع كله ؛ فلقد ربيت فى بيت محافظ • وكان والدى ـ رحمه الله ـ رجلا من غير هذا الجيل : شديد الغيرة ، شديد المحافظة على العادات البلدية القديمة ، شديد التزمت ، ثقة ، وورعا شديدا ، ومغاليا فى كل شىء ، فلا يتركنا نغادر البيت حتى للحمام ، وحتى لديار ذوينا الأقربين ، ولا نعرف من الرجال إلا هو ، وجدى ، وعمى وخالى ؛ ولا من النساء سوى أمى وخالتى • وكنت أنا وأخت تصغرنى بسنتين

نجهل عالم ما وراء جدران البيت • مع ه ، فهو لا يحرمنا شيئا من أشياء المآكل ، والملبس ، والزينة من حلى ، وحلل ، حتى المشموم والحناء ، واللب • لا أدرى الآن إن كان يجب أن أضحك ، أو أن أبكى من حياتى تلك • فلقد جاوزت السابعة عشرة ، وأنا أجهل كل شىء عن الرجال » •

* * *

وقاطع الدكتور أحد الأصدقاء محتجا :

ـ « ما علاقة الحقن والمبسم الصدفى بسر الغرفة السابعة ؟»

وعلا ضحك الجماعة • وجذب الطبيب يد صديقه المحتج • وبعد أن جس نبضه ، وبعد التحقق من أن المحتج غير مصاب بحمى ، ولا يخشى منه إلا عدوى الضحك ، استأنف حديثه :

ـ « لقد صبرت أنا أكثر من ساعة على سماع هذه القصة • وأعنت محدثتى على ربط حديثها ببعضه • وأنت أعلم الناس بتفكك أحاديث النساء ، وكيف يلجن بك من حديث الطقس الى الحديث عن حلقة الخياطة ، الى غربال الشعر ، وأنت لم تطق سماعها في عشر دقائق • سأصف لك بعد انتهاء الحديث وصفة مفيدة لتهدئة الأعصاب • وكما قيل : « لو سكت لمت على جبل عرفات » •

قلنا :

ـ « أتمم حديثك ودعه يموت أين شاء » •

وعاد الى حديث المرأة • قال : قالت :

ـ « كثيرا ما كنا نسمع أمنا تحدثنا عن الزواج ، والأزواج إلا أن كلا منا كانت تتخيل هذه الأشياء كما شاءت » •

وكنا نعلم أن أبى تزوج أمى ، وأمى ولدتنا • أما كيف ؟ ولم ؟ فهذه أسرار لا تقولها أمى حتى إنها تحظر علينا مشهد مخاض قطتنا « مرجانة » • وتسجننا فى غرفة حتى يتم ذلك •

— 3 —

« كنا نسكن بيتا عتيقا بدور واحد ، إلا أن سطح البيت به غرفة ، والغرفة محجر علينا دخولها تحجيرا كليا • ولم نر والدى ووالدتى يقصدان الغرفة المتروكة • وتحجيرهما هذا أذكى فى نفوسنا نار الاستطلاع ، وترك لخيالنا أن يتصور ما شاء من أسرار وكنوز هذه الغرفة اللعينة • إلا أننا ما نصل الى الدرج الموصلة الى الغرفة إلا وثنانا خوفنا من العقاب •

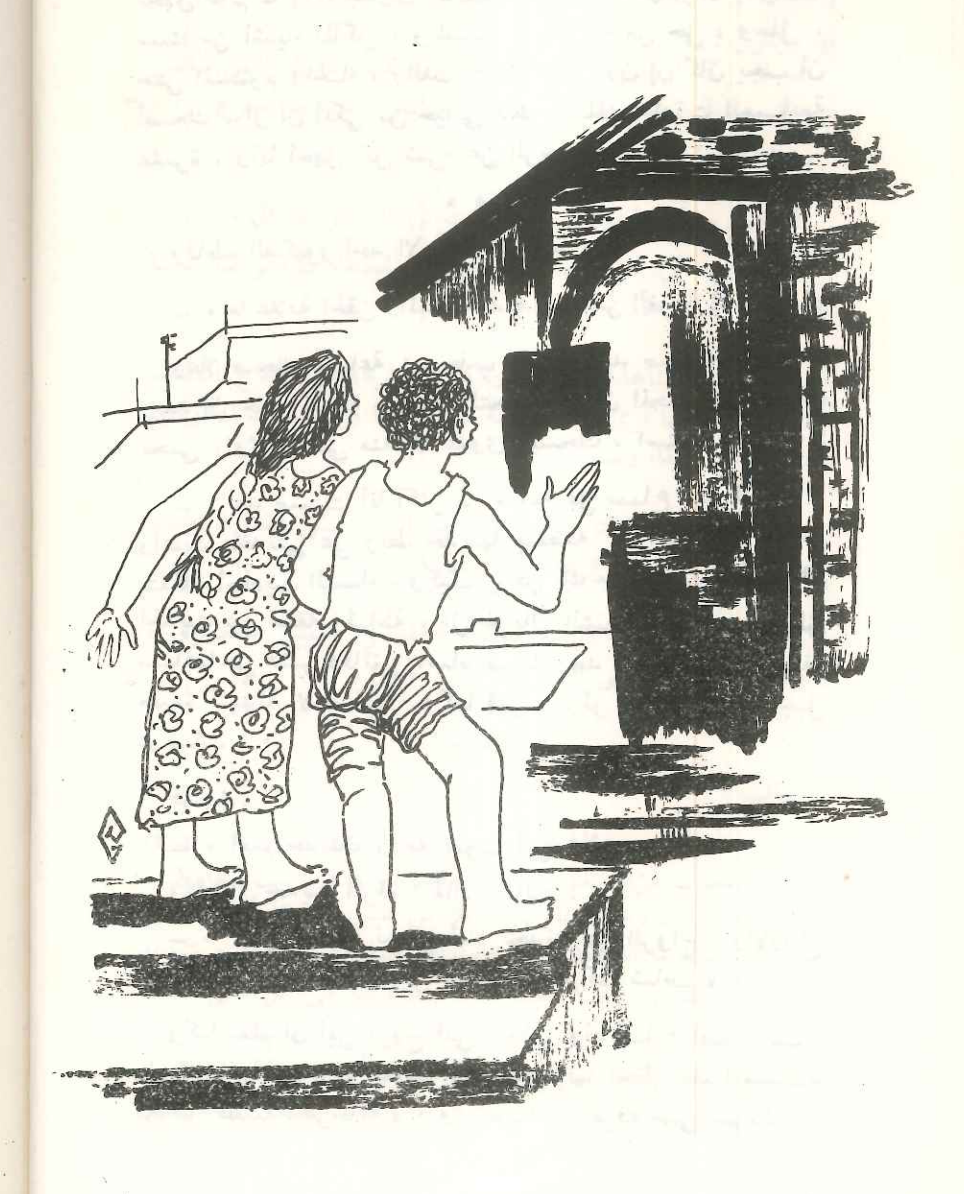
« فى قيلولة من قيلولات الصيف ، وكان والدى متغيبا عن العاصمة ، وكانت أمى تقيل فى مقصورتها ، تواطأت مع أختى على شق عصا الطاعة ، والصعود الى الغرفة الجذابة على أن تطلع كل منا بدورها ، وتبقى الأخرى للعسة • وسبقتها أنا •

« لم يكن للقفل مفتاح ، وإنما بها مزلاج مصدأ فتحته بعناء ، وفتحت الباب ، واذا بى فى غـرفة مـربعة صغيـرة ، كسـا جدرانها العنكبوت والغبار ، وتمازجا ، وما تـانست عينـاى بنصف نور الغرفة ، وتأنست رئتاى بثقيل هوائها حتى رأيت خلف الباب كوة صغيرة فى مثل عنق القلة ، لا تحميها قضبان حديد جعلت للتضوية والتهوية ولهلاكى أنا •

« أول ما صنعته ، بالطبع ، هو التطلع لعالم لم تعد تحجبه عن عينى الجدران الكثيفة • ورأيت !

« كان البيت الذى خلفنا يدار لاشياء « سرية » • وقد علمت ذلك بعد • ولم أر ساعتئذ من كوتى إلا رواقا صغيرا ، وفرشا مطروحا على الأرض عليه فتى وفتاة أمامهما مائدة عليها قوارير، وكؤوس ، وشقة بطيخ أحمر ، وثلج •

« لم أنزل رغم إلحاح أختى إلا بعد نصف ساعة ، نصف ساعة كدهر تعلمت فيها كل شيء •



« وعدت الى غرفة السطح ، وعدت حتى تفطنت بذلك أمي ، وضربتني • وحتى علم بذلك أبي وضربتني الضرب المبرح ، وحتى الليلة التي وضعت فيها بشكيرا على رأسي وذهبت الى البيت •••••• المجاور » •

سكت الدكتور •

وسأل أحدنا :

— « ما فعل الله بالصغرى ؟ »

وسأل آخر :

— « لم ترك والد الفتاتين الكوة ، ولم يعمل على سدها ، وكان ذلك هينا عليه ؟ »

لم يحفل الدكتور بهذه الأسئلة • ورآها خارجة عن موضوع القصة • وود لو يتمادى في تفسير « رد الفعل » في نفوس الأحداث ، وتأثير المفاجأة والمباغتة بالأشياء التي يجب أن نقبلها بالتقسيط • وددنا نحن لو فعل ذلك ، إلا أنه تذكر وعدا فقام إليه وهو يزمر أغنية : الهوى والشباب •••

نزهة رائقة

وصلت القاطرة محطة رادس ، فنزلت • وبين غوغاء الباعة ، وضجيج المقتبلين والمودعين ، وقفت أفكر أية جادة أتبع • وبلدة رادس تقسمها المحطة الى « رادس عليا » و « رادس الشاطئ »، وأنا لا أدري في أي القسمين توجد « فيلة » صديقي عبد الله التونسي ؛ فلقد دعاني صديقي ، هذا ، الى الغداء في « فيلته » الجديدة • وهو كلف بها ، لا يتحدث إلا عن آجرها ، وما كلفته أبوابها ونوافذها • إلا أنه لم يذكر لي موقعها ، كأنه يظن أن « فيلته » هذه هي زهراء قرطبة ، أو برج بيزه ، أو مدفن حيدر آباد •

بقي لي أن أسأل عنه ! ولكن الى أين أذهب • ومدينة رادس (٤) بها ما يقرب من 35.000 ساكن • وأسأل بينهم عن عبد الله التونسي ، مع العلم بأن ثلث السكان مسلمون وأن ••• كل حديثي عهد بالاسلام يتسمون بهذا الاسم •

وما أخرجني من حيرتي هذه ، إلا أنْ رأيته واقفا أمام باب المحطة ، وهو يجهد نفسه في عد عربات القطار •

---

(٤) في الأصل : ولكن اذهب مكاني في رادس وبه ما ؟ .

قلت :

ـ « هو ذا أنت ! » .

قــال :

ـ « أهلا وسهلا . لقد ظننت أنك لن تأتي ! » .

ـ : « هذه آثام . ألا تدرى أن بعض الظن إثم ... ومــا دفعك الى هذا الظن ؟ » .

ـ : « لا شيء ... هيا ... فهم يترقبوننا » .

ـ : « من ؟ » .

سكت صديقى لحظة ـ وقلمــا كان يجيب عن ســؤال ـ ثم استأنف حديثه قائلا :

ـ : « ستعرف اليوم أخي عميرة » .

ـ : « وهل لك أخ ؟ » .

ـ : « كل المؤمنين إخوة . أما هذا ، فهو أخــى ، وإن لم يحملنا بطن واحد ! » .

ـ : « هو أخوك من أبيك ؟ » .

ـ : « هو نصف أخ لنصف أخي .... أعنى أنــه ربيب امرأة أبى الثانية . وقد قدم اليوم من « الساحل » فى سيارته الخاصة » .

ولا يذكر صديقى عبد الله سيارة أخيه الخاصة إلا كما يذكر « البرنس أوف ولز » قصر « برمنقهام » .

اقتربنا من « فيلــة » غريبة الشكل . وسمّعت صوتــا فى داخل نفسى يقول : « إنها لعبــد اللــه ! » فهى فى خــارجها كشكول من كل الأشكال المعمارية : فالطراز الأندلسى يزاحم بمنكبيه طراز النهضة الايطالية المزخرف بافريــز « لــويس الخامس عشر » ويزين الجميع جليز نابلى مشوش الوضع على ما تقتضيه الذوق العصرى الذى يكره التوازن .

فلو رأيت إذ ذاك صديقى عبد الله الثونسى ، وهو معتــم بطربوش عليه عمامة حريرية ، ومرتد بدلة إفرنجية عليها جبة من قماش « القمراية » لعرفت مثلى أنه صاحب « الفيلــة » .
وجاء فى المثل السائر : « كل البيوت على أصحابها تقع » .

هذا عن « الفيلة » وصاحبها . أما (ربع أخى صديقى) فقد وجدناه واقفا بجانب سيارته الخاصة ، وهو يتسلى بالتطلع فى دقــائقها ، وكأنه يراها لأول مرة ... وله الحق ، فهى أغرب منظرا من مسكن أخيه .

سيارة لها كل الألوان ، وكل الأشكال . ولكنها لا تنتسب الى طراز نوع خاص . إذ هى خليط من كل أنــواع سيــارات الدنيا العتيقة والحديثة . والعجيب أن مجموعة القطع الحديدية التى يتكون منها محركها تدور وتدفع دواليبها الى الدوران . ولصاحبها أن يدور بها طرق الدنيا ، وحتى طريق الآخــرة ، ولكنى لا أضمن له أن يعثر فى دورانه على شركة ضمان واحدة تضمن له هذا الكدس من الحديد والمطاط .

وقدمنى اليه عبد الله ، فاذا هو رجل فى مثل ســن أخيــه (أى : لا سن له) طويل القــامة « يحمــل » أنــف ملاكــم ، ونظارتين خضراوين ، وبدلة زرقاء عليها « كدرون » أسود ، وينتعل « بلغة » صفراء عليها « جزمة » صفراء أيضا لامعة تسر الناظرين لعلها أثمن ما يرتديه . ولعــل « تشريفــات » أخيه عبد الله جعلته يرتدى هذا الزى « الرياضى » ليعلم من لا يعلم أنه هو صاحب السيارة . وإن كان لا لزوم لذلك ، فلقد عرفت ذلك من نفسى أيضا (وقلب المؤمن دليله) .

رحب الضيف بصاحب البيت ، وكنت أتوقع العكس ، فى فصاحة لم أتبينها جيدا لفأفأته وصمم أذنى اليسرى . والغالب على الظن أنه رحب بى أيضا ، ثم دعانا الى ركوب السيارة .

قلت :

— : « سوف نتشرف بذلك بعد الغداء » .
قال عبد الله :
— : « سنتغدى على البسط الخضراء » .
قلت :
— : « أى بسط ؟ » .
وكأنى حزرت ما يعنيه فاتممت سؤالى متعجبا :
— : « فى مثل هذه القيلولة ؟ » .

وأجاب عميرة الفأفاء فى ست دقائق جوابا لم يصل أذنى منه إلا : ... ظلال ... وأشجار ...

ثم قال عبد الله :

— : « أنت فى مقام أخى هذا ، ولذا فانى سأقدم إليك أختك » .

قلت ، وعلى فمى كل علامات الاستفهام والتعجب :
— : « أختى ! ! وهل هى هنا ؟ » .
— وأين تود أن تكون فى مثل هذا اليوم ؟
— حيث تركتها !
— وأين تركتها ؟
— فى بيتها ... طبعا .

وضحك عبد الله بأسنانه الصفراء . وضحك عميرة أخوه ضحكة رياضية جعلت أنفه الرياضى أيضا يغور بين وجنتين صنعتا من البطاطس الشهيرة بقرية غار الملح .

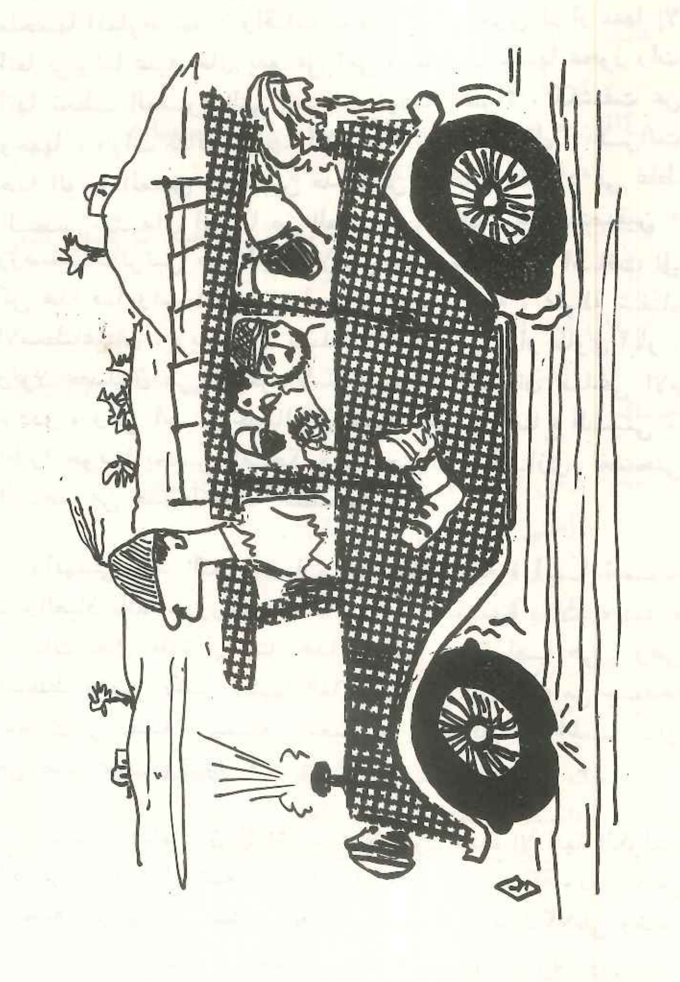
وتكلم عبد الله تقاطعه القهقهة ، وعميرة بفأفأته المضجرة . وفهمت أخيرا أن عبد الله يعنى بأختى زوجه المحترمة .

دخل عبد الله « فيلته » وخرج بعد قليل يحمل أطباقا ثم

أطباقا . ثم أخرج سلة مملوءة خبزا ، وقوارير ، وحققا . وأخرج عميرة بسطا و « كليما » و « فاشكة » فى غلاف من سعف أصفر، وقفة حبلى كالدهر الذى ليس يدرى ما يلد ... وأقبلت تتبعها « أختى » أمرأة عبد الله ، وهى تتهادى فى ملحفتها المملوءة بها . وأقبلت تتبعها امرأة أخرى لم أر منها إلا أنفا بربونيا عليه خال يقع على أعلى قممه ، ثم تبعتها عجوز رأت أنها تخطت العقود التى تحتجب فيها المرأة ، فكشفت عن وجهها ، ورأت بثاقب رأيها أنها امرأة على كل حال . فزانت هذا الوجه العتيق بحاجبين مدهونين بصباغ أسود فى غلظ البنصر يمتدان أفقيا من الصدغ الى الصدغ ملتصقين . ووضعت دائرتين من اللون الأحمر على وجنتيها . أضافت الى كل هذا فما واسعا قصيرة أسنانه الاصطناعية ، غليظة شفتاه الاصطناعيتان ، وبشرة لا تصلح الا لعالم أثرى أو طاوى آبار ، ولولا خصلتان من الشعر الأسود الحالك تستران صدغى الأم « ددو » وهى أحسن خصالها وتعطيان هذا « القناع الصينى » إطارا جويا يحبس الضحكة فى حنجرة الهازىء لفضحنى الضحك من هذه الغاسلة المتصابية .

وأفهمنى عبد الله باشارة « اشمئزازية » أنها حماته — والعياذ بالله — ورحبت بنا ، أنا وعميرة ، الأم « ددو » بكلمات تقال عادة فى مثل هذا الموقف ، وتقولها هى ، وهى تتمطط وتغمز بكلتا عينيها الغائرتين . وكان جزء من جسدها يتحرك من نفسه ، لنفسه ، ليعبر عما يكنه كل هذا الجسم البالى من بقايا عجب وغرور .

وتبعتهن فتاة دون العاشرة . لا أقول عنها إلا أنها الكوليرا الصفراء (لو كان ثمة كوليرا صفراء) أكثر حركة ودورانا من النحلة ، وهى كوم عظام متحركة يكسوها جلد شكلاطى وشعر أصفر مشوش صفرة محلول « الاوكسيجينى » ولا ادرى لماذا ذكرنى هذا التنافر بوجه الضروس .



جلست أنا وعميرة السائق ، وبيننا الفتاة الابليسية على المقعد الأمامى ، واكتظ المقعد الخلفى بالمرأة المجهولة وبجسم الحماة المتصابية ، وجلس أمامها عبد الله وامرأته • وبين أرجل الجميع كل القفف والقيروانات والأطباق ، وكان من حظى أن أودع عندى (فاشكة) وقفة فيها بيض وزبدة وعلب (السواقر) وتوكل عميرة على الله ، وعلى محركه ، ونفثت سيارتنا دخانا من أمامها ومن خلفها •

وسارت بنا تتعثر ، والناس من حولنا يبتسمون ، ويوسعون لنا الطريق •

علمت أن الفتاة ابنة للمرأة المجهولة ، صاحبة الأنف البربونى والخال ، وأنها أكثرت من رفس رجلى ، وأن كل العائلة تدللها ولا تنهرها ولا تردها عن شىء لأنها ضيفة وابنة ضيفة ، وأنا ضيف مثلها وليس من مبادئى تحمل ثقل دل الضيفات الابليسيات ؛ فلقد وددت أن أقذف بها من نافذة السيارة وأريح جنبى ورجلى من رفسها المتتابع ، وما منعنى من ذلك إلا انشغال يدى بالقفة والفاشكة • فاللعينة تختار المنعرجات الخطرة لتمسك بيد قريبها السائق وتجذبها بقوة لتسأله بكل برودة عن اسم تلك الشجرة أو ذلك الشخص الواقف حذو خندق الطريق • وتصور أن السائقَ أبسط من الفتاة وأكبر منها حمقا فهو يترك دفة القيادة لمشيئة الله ، ويلتفت نحو الشجرة أو الشخص موضوع السؤال ، أو تراه يحاول مسابقة سيارة نقل ، وهو يكرر نفخ بوق الانذار ، وهو لا يسابق إلا سيارات النقل ، فترمى الشيطانة الخبيثة بكل جثتها بين يدى السائق وتجعل من نفسها حاجزا بينه وبين الدفة ، وتكون إذ ذاك ساقاها ، بالطبع ، تعملان فى جنبى أو فى ظهري رفسا موقعا على حسب الوحدة ••• ولقد وددت ، والله قرصها قرصا لاذعا ، لولا خوفى من صراخها الذى سوف يزيد فى التشويش على السائق المسكين ، وبين يديه دفة القياة ، وحية رقطاء ،

وأرواحنا جميعا .

كنا نسير فى طريق سليمان فى سرعة لا وجوب لنكرها . وكانت الفتاة لابسة حذاء من قماش به رباط طويل ، وما رأيت أشجارا إلا وقلت هنا سنتغذى بحول الله . ويمر عميرة السائق بالأشجار وكأنه لم يجع ، أو لم يرها ، وتعاقبت الحيبات والرفسات ، وأطرقت أفكر فى أمر هذا الغداء الذى لن يحين أجله قريبا ، ولم أعد أحفل بأشجار الطريق ، ومن عادتى المعونة أنى كلما أطرقت أفكر فى شىء أخذت يداى فى عمل شىء ، وفى حركة آلية ، بدون أن أقصد ذلك العمل لذاته ، والغالب على ظنى ، أنى فى إطراقى إذ ذاك ، كانت يداى تعبثان برباط حذاء الفتاة ، ولم أدر الى الآن كيف دخل رباط الحذاء فى أذن القفة ، ولم أدر أيضا لم اشتبك بنفس الحركة الآلية برباط الفاشكة . ولكم أن تعتقدوا سوء نيتى أو حسنها ، المهم ، والواقع ، أن الفتاة جذبت فى صراعها المستمر رجلها فجأة ، وفى حركة آلية أيضا ، جذبت معها قفة البيض تتبعها الفاشكة فى ثوبها القشى ، وأحست الفتاة بدورها بثقل فى رجلها فأعادت الحركة غضبى : وتناثر البيض ، وتناثرت السواقر ، وقطع الزبدة ، واختلط أبيض البيض بأصفره ، واختلط كله بملابسنا ، وفاحت رائحة ما فى الفاشكة قبل كسرها ، وكثر تساؤل القوم عما وقع كأنهم لم يروا ما فعلته ابنتهم بالزبدة والتبغ والبيض . وبما أنهم كانوا يودون إيداعه بطونهم ازدانت به ملابسهم الأنيقة ، وكان حظى مما فعله الزجاج بيدى ورجلى أكثر من حظ الجميع .

وبالطبع ، أضافوا بخبث هذه العملية الى حساب البنت المدللة ، ولم يفكر أحد منهم فى اتهامى بشىء ، وبعد عمليات الكنس والمسح ، استأنفنا السير لا الى المكان المعين للغداء ، ولكن لعين قريبة من ذلك المكان لنزيل بمائها ما علق بنا من أبيض وأصفر وأحمر .

هذه العين لا يعلم مكانها الا عبد الله . وبإرشاده ، تركنا الجادة المعبدة الى طريق لا تطرقه إلا الأرجل ولا تطرقه إلا نادرا ، كثر فيه تعثر السائق والسيارة .

أما أنا فاني كنت شديد الوثوق من أن الوصول الى عين زغوان أهون وأقرب من عين لا يعلم مكانها إلا عبد الله . وما زلت أذكر لصديقى عبد الله نوادر غريبة فى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ؛ فهو أحب الناس لفعل الخير وإرشاد الضال .. وإن كان قليل التوفيق ، فليس الذنب فى ذلك ذنبه ، وإنما الذنب ذنب من استثاقه وعمل بمشورته ، ولا أنسى يوم كنا فى مدة الاعتصام بحمام الأنف ، إذ ذاك عشرة أضعاف ما كان به من سكان قبل الحرب . وقل الخبز قلة أقلقتنا على بطوننا وأجاعتنا ، فكان اللاجىء منا يقضى الساعة والساعتين فى صف المخبز لأخذ حصته . وفى يوم كنت قضيت ساعة ونصفا فى ترقب دورى أمام المخبز ، ولم يبق بينى وبين الباب إلا أفراد قلائل ، وإذا بصديقى عبد الله أمامى لا أدرى من أين أتى وسألنى .

ـ ماذا تصنع هنا ؟.

كانه لا يدرى ما كنت أصنعه وأجبته :

ـ أشترى الخبز .

فاقترب منى وأسر فى أذنى :

ـ لماذا لم تستشرنى فى هذا ؟ اسمع وافهم : خبز هذا المخبز أردأ أنواع الخبز ، ولى خباز صديق صدوق ، وخبزه أشد بياضا من خبز هذا ، سأقدمك له ، وسوف يعطيك ما تشتهى من أرغفة ومتى شئت . هيا اتبعنى .

قلت ، وأنا لا أودّ أن أترك مكانى من الصف :

ـ لنترك هذا الى الغد . ها أنت ترى أنه لم يبق إلا دقيقة

واحدة لاخذ حصتى من هنا •

وكأنه غضب من قلة ثقتى بصداقته للخباز صاحب الخبز الأبيض فقال :

ـ هيا اتبعنى • وسوف لا تندم ••• مالك !•• أتشك فى صدقى ؟••

كنت أعلم جيدا أنى سأضيع فرصة ترقبتها ساعة ونصفا • ولكن قوة خفية فى عبد الله وخجلا وضعفا منى ، دفعتنى إلى سماع ترهاته • فتركت مكانى آسفا أمام تعجب الناس • وذهبت أتبع عبد الله • وبعد أن جبنا البلدة ومررنا بثلاثة مخابز وصلنا الى الكوشة المقصودة واذا بها موصودة الأبواب•

وقال عبد الله :

ـ لعله نزل الى تونس يبتاع الدقيق •

لم أجب بشىء ، وإنما رجعت على عقبى الى المخبز الاول • ولم أصل اليه إلا بعد أن نفدت كل الأرغفة ، ولم يبق إلا أنا وعبد الله وجياع يترقبوننى فى البيت •

كل ما وقع أمام المخبز وقع فى التفتيش عن العين • فبعد أن دخلنا أرضا رملية رخوة كسبخة لا يسير فيها « الطنك » إلا بصعوبة قصوى ، وبعد أن بعدنا عن الطريق المعبدة بما يقرب من تسعة كيلومترات ، وقفت بنا السيارة وصرخت امرأة من خلفنا :

ـ هل وصلنا الى العين ؟

وقالت أم الفتاة :

ـ لقد قرص الجوع مصارن ابنتى !

كانها هى فى مأمن من قرصه •

وأجاب عميرة :

ـ بالمحرك خلل بسيط •

ونزل اليه يختبره ، ثم أردف قائلا :

ـ هما الشمعتان •

وسألت العجوز :

ـ هل تضاء بالشمع ؟

وقالت امرأة عبد الله فى لهجة الخبيرة بكل الأمور :

ـ لقد كذبت حاسة شمى مرارا وأنا استنشق شذى شمع يحترق •••

وقال عبد الله :

ـ لا • لا ، تلك رائحة البيض امتزجت برائحة كحول الوقد •

وأخذ عميرة فى اصلاح شمعه وأخذنى خوف من اصلاحه أكثر مما كان أخذنى من سياقته المشاغبة اللعينة •

ونزلنا نستكشف المكان الذى أوقعنا طالعنا فيه •

وقال عبد الله : إنه يعرف المكان جيدا ، وهو يعرف كل شىء جيدا ، وهو يقترح أن يبقى عميرة يحرس الحريم ويصلح ما أفسده الدهر من محركه ، وهو يدعى أنه يعلم مكان العين المزعومة • ولكننا الآن اقتربنا من بئر فلنذهب أنا وهو والفتاة لنستسقى منها • وحملت أنا وهو دلوا من قماش ، وحملت الشيطانة الصغيرة « شربية » ودلنا عبد الله على الطريق كعادته • وبالصدفة التى تعترضنا مرة فى العمر ، وقعنا على بئر وتسابقنا أنا والفتاة اليها • واذا بعبد الله يتبعنا منذ رأى ماء هذه البئر شديد الملوحة ، ويخلف شرب مائها حصى فى الكبد ، وأن البئر التى يقصدها هى غير هذه • وبنفس الضعف المخجل ، اتبعنا الدليل الذى لا يرحم جوعى ولا الفتاة المتعثرة برباط حذائها • وكان يسرع فى خطاه نحو أرض جبلية • وأخذنا فى تسلق ثناياها فى عناء شديد • وبعد قطع

ما يقرب من ثلاثة كيلوميترات ، أخذ يفتش عن مكان البئر وكانت الفتاة التى تصحبنا أشد نباهة منا فانها سألته :

ـ هل تفتش عن بئر لتحفرها الآن ؟

وكما توقعتم ، فقد رجعنا بأوانينا خفيفة الى البئر الأولى ، ووجدنا ماءها حلوا مستساغا ، روانا ، وأزال عنا ما علق بنا من أبيض وأزرق •

رجعنا الى المكان الذى تركنا به السيارة والنساء • ووجدنا عميرة قد جعل من سيارة واحدة ألف قطعة حديدية مبثوثة هنا وهناك •

ونظرت الى ساعة السيارة • والعجب أنها هى الآلة الميكانيكية الوحيدة التى تسير بشبه انتظام فى هذه السيارة الملعونة • واذا الساعة الثالثة والنصف ، ولم يبق أمامنا إلا الأكل وإرجاع الألف قطعة محركا ، ولم يبق إلا أربع ساعات ونصف للغروب وعوننا بالله •

لنترك عميرة يعبث باسطواناته وأقراصه المربعة والمسدسة ، وهو يعوم فى بحر من الكلاليب والمطارق المبثوثة حوله بث الزيتون على بسط القاطفين (ولا أقول الجناة عمدا) لا نسمع منه إلا (تيك تيك دم درن درن) مما يشكوه الحديد من أصابعه التى لم تخلق إلا للتدخين ، ولننظر فى أمر الغداء ••••

قدت آنفا : إن الكحول الذى أعدوه للطبخ قد أريق وكسرت فاشكته أشنع تكسير ، ولم تبق من طريقة لإيقاد نار إلا جمع حطب ، بشرط أن يكون قابلا للالتهاب • وحزرت بفطنة لم أفطن بوجودها قبل تلك اللحظة فى يا فوخى أن عهدة التحطيب ستناط بنا أنا وعبد الله والفتاة •

ورأيت هنا أن الأهون هو أن أقوم بمحاضرة طويلة مقنعة فى فوائد أكل الطعام باردا • وارتجلت لهم أسماء يونانية

وعربية ولاتينية لأعلام نصحوا بذلك • وارتجلت حججا وحججا لا شك أنها أبرد بدرجات من الطعام البارد إذ لم تهضمها أدمغتهم المتخمة بأشياء أخرى لا داعى الى ذكرها هنا • وعوض ما كنت أتوقعه من تصفيق حاد متواصل لا نهائى •• ختمت محاضرتى باحتجاج العجوز :

ـ بالله •••• هلا أضعت وقتك هذا فى جمع شىء يوقد أكثر من الحديث ؟•

وقالت إحدى المرأتين :

ـ حديثك يفيد كثيرا لصنع (الجيلاط) •

وودت أن اهرب منهن الى الشيطان ذاته لو علمت عنوانه • وود صديقى عبد الله أن نهرب منهن الى التفتيش عن الحطب • ولم أجد مخلصا إلا أن أجيبه بالموافقة ، وأنا أنوى التخلص بالهروب منه فى الطريق •

وسرنا ، وأنا أردد فى نفسى قول الحمار الفيلسوف • ولا أعنى به الفيلسوف الحمار فتنبه ! عندما قيل له : « إن أصحاب عرس يدعونك الى الوليمة » •

فأجاب برصانته المعهودة وهو يحرك أذنيه : « هذا إما لحمل الحطب وإما لحمل القرب » •

وقال عبد الله : إنه يعلم مكان غاب صغير به حطب ، وذكرت حديث اللدغ والجحر ففتحت مذاكرة مع الداعى قلت :

ـ أترى الجبل ؟

قال : نعم أراه •

قال : هذا ، وهو يضع نظارتيه كأن (بوفرنين) لدقته لا يرى بدونهما •

قلت : أوفيه حطب ؟

قال : بدون شك ! هذا الشائع عنه !

قلت : أليس هو الغاب الذى تعنيه ؟

قال : الغاب حوله ، أعنى بقربه ·

قلت : فى كم من الوقت نصل الى حطبه ؟

قال: أراه قريبا ·

قلت : سألتك عن الوقت ·

قال : بالضبط ؟ لا أدرى ، ربما فى نصف ساعة !

قلت : ما أحسن ظنك بالطرق ، بيننا وبينه ساعات طويلة ، وسوف لا نرجع منه قبل الغروب وقد فعل الجوع بنا ما تعلم ولم يبق إلا أمران ولك الخيار فما اخترته عملنا به ·

قال : هات !

قلت : خذ ··· إما أن نتغدى غداءنا كما كنت أنصحكم ، باردا شهيا ، وإما أن نوقد بعض هذه الأعشاب بعد أن نسقيها بنزينا ·

قال : وقد فتح كلتا عينيه ولم يغلق بعد ذلك إلا واحدة كمن فهم جملة من جمل « نيتشه » ·

البنزين ····· والسيارة ؟

قلت : وهل بقيت سيارة ؟ وقد فعل بها عميرة ما فعل ! هى اليوم لا تمشى ببنزين طبيعى ولا صناعى فلنستعمله للوقود خير من عدم استعماله مطلقا ·

ورجعنا ببعض الأعشاب وأولعناها حسب ما تآمرنا عليه · وكانت فكرة مصيبة بعض الاصابة إذ انى كعادتى لم أحسب حساب الفتاة التى لم تر النار حتى أصبحت كالفراشة (أعنى : كالفراشة المجوسية) تحوم حولها حبا لها وعبادة وشيطنة ·

وفى كل مرة تصرخ أمها بصوتها الحلقى :

ـ ابتعدى يا كبدى لئلا يشويك اللهيب لا شوى الله كبدى فيك يا عزيزتى ، يا كليبتى ويا عصفورتى ·

وتبقى تشبهها بكل الحيوانات البرية والبحرية · أما الكبد العزيز ، فهى لا تحفل بما تنشره أمها من جواهر بلاغتها وقد انحصر همها فى أن ترى النار « ترعى » بستانها « المزهر » ·

كما أنى لم أحسب حساب النكهة التى سيخلفها البنزين فيما كتب لنا أن نأكله من الغداء ، كنا إذ ذاك نحرق أصابعنا بالتوالى ، ونحن نتبادل حراسة الأطباق على أثافيها ، وكلنا على النار (أعنى : نحن والاطباق) · وفرشت البسط وهيئت الأماكن لكل منا على قاعدة عدم اختلاط الجنسين · وفتشنا عن عميرة فى خضمه الحديدى فلم نجده · وبعد البحث والفحص وتتبع آثار رجليه فى الرمل عثرت عليه الفتاة العنود تحت السيارة يتظللها وليضللنا نحن بدورنا · ادعى أنه كان يصلح خيوطا فى أسفلها ···· هو ·· هو الذى لم يتمكن من اصلاح أعلاها ···· وعلى كل حال ، لم نحفل كثيرا بما يصلح أو بما يفسد أو بما يقول ·

وكانت الأطباق تفوح بهارات ،وفلافل ، وبنزينا ، وكان الطبق الأول سلاطة ، قد حضرتها الحماة السليطة كأحسن ما « يسلط » من طماطم وفلفل أخضر · وكان طبقا لذيذا لولا أنها غلطت غلطة أو غليطة اذا شئتم · هى أنها اختلطت عليها الحقق والعلب ، فوضعت التاى الاخضر عوض النعناع الشهى ، كما اعتاضت عن الملح بالسكر فى طبق « الكوشة » وحصل ما يتوقع من جراء غلطاتها هذه ، إذ هى كما استعاضت عن الملح بالسكر فى طبق اللحم وضعت ملحا ونعناعا فى « البراد » المعد لتحضير ما يمكن أن يكون تايا ·

انتهى غداونا · ولم نأكل منه إلا الخبز والماء ، وقام عميرة الى

إفساد ما بقى من سيارته وهو يهيب بأخيه :

ـ هيا الى إرجاع هذه ·

ويعنى بهذه الالف قطعة الحديدية ·

وضحكت ضحكة مكتومة من غدائنا هذا ، ومن حياتنا هذه ، فكل جزء من حياتنا يعيد نفسه فى كل لحظة · ها نحن أخذنا طيبات الحياة الشهية ولم نقنع بها كما خلقت ، وودنا تحسينها ، وتكييفها ، وصقلها ، وترقيتها ، فتشعبت ، وأضحت كطيبات غدائنا هذا · · ·

وكانت غرائزنا البشرية تسيرنا وتسير فينا من نفسها بنفسها ، كما كانت تسير سيارتنا · وأتى جماعة من علماء وفلاسفة حكماء ، وحاولوا إصلاحها ودرسها وفحصها لطرح ما فينا من شر وقلعه قلعا ، وتحسين ما فينا من خير ، ففصلوا بعضها عن بعض وأوقفوا سيرها ، وجعلوا من غريزة البشر آلاف الكتب كل كتاب يحوى آلاف الفكر المفككة المطروحة (كرواشك) سيارتنا التى لا يمكن أن تسير بعد الا مجرورة الى هاوية (جبل الجلود ، وبيدون فيل) حيث تطرح القطع التى لم تعد تصلح ·

هذا ما فعله عبد الله بغدائه وما فعله عميرة بسيارته وما نفعله بحياتنا وأنفسنا دواما · فالويل لأنفسنا منا · كنت أقول هذا ، وأنا أستعيذ بالله من هذه الأفكار القاتمة الكالحة· وأتجه نحو نقطة سوداء كلما تأملت فيها ازداد حجمها كبرا ، ولما تبينتها فاذا هى عربة نقل ، يجرها بغل قد تدلى لسانه الى جانب أحد فكيه ، كما تفعل بغال تنظيف العاصمة فى فصل الحر · واتجهت مسرعا نحو السائق ، وأنا أدرى جيدا ما نويت القيام به ، فقد فقدت كل ثقة بالسيارة والمسير لها · ووجدت سائق العربة رجلا بدويا يحتقر السيارة ومخترعيها الكرام ، ويكرهها كرها شديدا ، لما تخرجه خلفها من دخان وغازات

قذرة تضجر أنفه وأنف بغله ·

وبعد أخذ ورد ، أقنعته بأن سيارتنا لم يبق فيها ما يخشاه ؛ أولا : لأنه سيجرها هو خلفه بعربته ، ولا خوف هنا إلا من غازات بغله فقط · ثانيا : أن فى صحبتنا « حريما » لا يمكن أن نتركه يخلد فى هذا البرزخ الرملى · وما زدته اقتناعا بأن عمله هذا إنسانى إلا عندما وعدته بمكافأة تغرى أطيب الناس أمثاله على فعل الخير وإغاثة المرأة الضعيفة (آه لو علم المسكين كم هى ضعيفة) ·

ما رأى عبد الله العربة حتى التفت نحوى مذعورا ، وسألنى فى حدة لطيفة :

ـ ألا تكفى هذه السيارة الملعونة وما نقاسيه منها حتى تشفعها بعربة قذرة كهذه ؟ ما تريد أن تصنع بها ؟

وأفهمته أن العربة القذرة ، هى كسفينة الطوفان لا فى قذارتها ، وإنما فى فائدتها · وهى الوسيلة الوحيدة لإخراجنا من مأزقنا هذا ·

أقنعت عبد الله ، وهذا سهل وأيم الحق ، ولم يبق إلا أن نتعاون أنا وهو على عناد أخيه عميرة الذى تنقص ثقته بسيارته وبنفسه ، والذى أمام الواقع المر يحاول أن يقنعنا بأن إصلاح « الموتور » لا يكلفه إلا نصف ساعة من الوقت على الأكثر ، ونحن كلنا نعلم ـ وهو فى ضمننا ـ أنه قضى أكثر من ساعتين فى فكه وتقطيعه · ورأينا أن البحث البيزنطى لا يفيد مع أهل بيزانس ولا مع عميرة · وحفظا للوقت أخذنا فى لم شعث « موتوره » ووضعه فى القفف والأطباق والصناديق ووضع الكل مع البسط والعجوز المزهوة داخل السيارة · وبالرغم عن امتناع عميرة ، أخرجنا حبلا أحكمنا ربطه بين مقدم السيارة ومؤخر العربة · ولم يبق إلا ان ندفع أنا وعبد الله وعميرة

السيارة من خلف لنعين البغل على جر هذا القطار الصغير . وخلفنا النساء يتبعننا متعثرات ، ومجعجعات متنهدات الواحدة خلف الاخرى على طريقة الهنود الحمر . كان عملنا شاقا . وكان الجو مغيما قاتما يشبه تماما أجواء نفوسنا القلقة المضطربة بين أمل الوصول الى رادس وخيبة المبيت فى هذا القفر بين الخوف والجوع . وهذا ما جعلنا ندفع السيارة بكل ما أوتينا من قوة . وهذا ما دفع شيطانتنا الصغيرة لجر ساقيها جرا ورفع الرمال التى يحملها الريح ويذروها فى عيوننا وأنوفنا بكل أمانة .

كنت وأنا أدفع السيارة ، مجبورا على لمسها بكفى مشمئزا من لمس هذه المادة اللعينة التى يسمونها الحديد ولم يشق الانسان إلا حين أراد أن يستغنى عن أخيه الانسان ويستعيض عنه بالحديد . وأخذت أفكر فى الحديد ، وفى عصرنا هذا ، عصر الآلة والحديد . . .

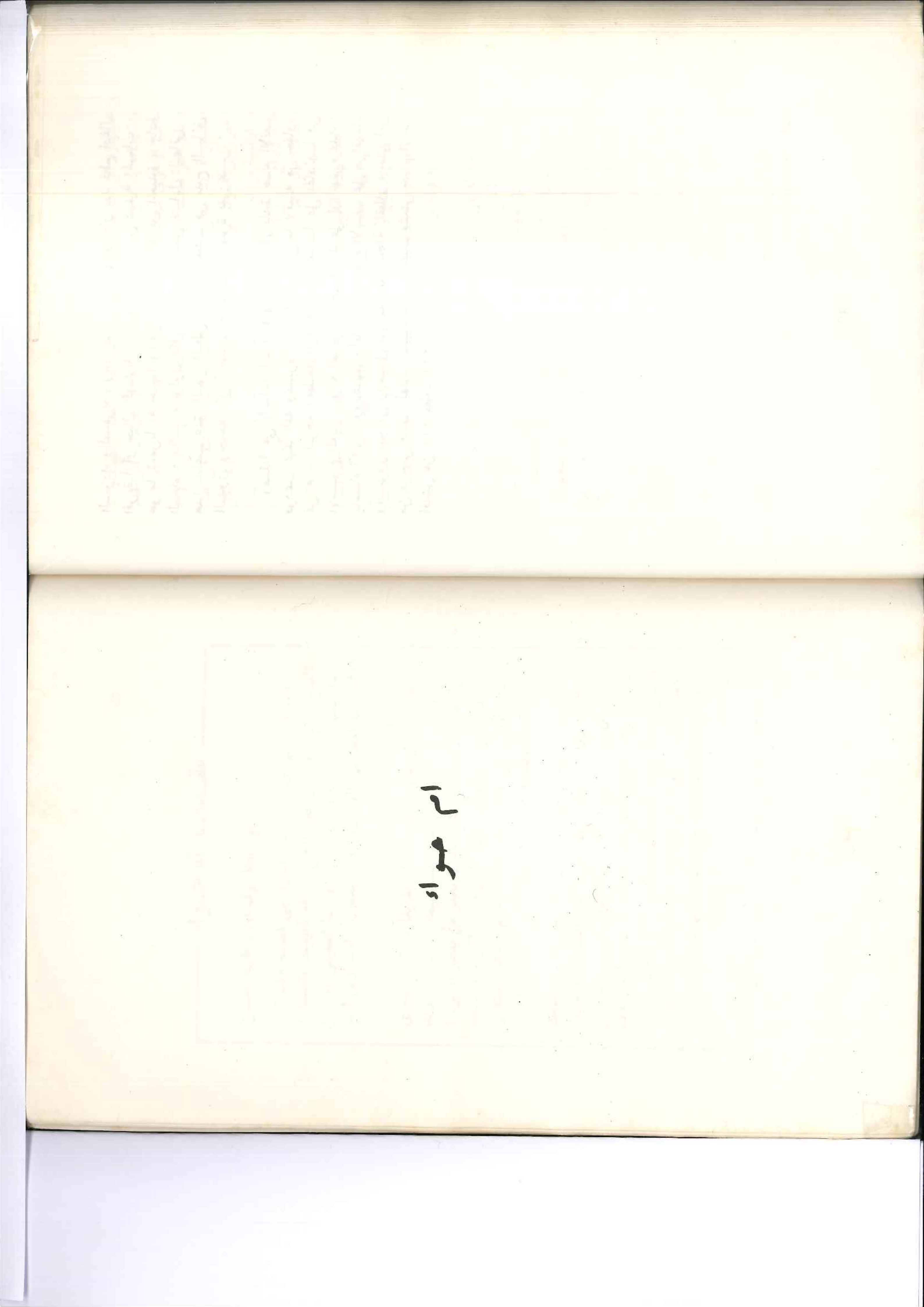
كل منا له فى بيته ركن للمهملات ، تلقى به الاشياء التى لم تعد تصلح لشىء وأكثر هذه الأشياء من هذه المادة المشؤومة «الحديد» . وكل هذه الأشياء اقتنيناها يوما ما فرحين، كأحسن وأنفع اختراع أحدث لراحتنا . فهذه الآلة لغسل الصحون استعملتها يوما وبعض يوم ، ووجدت أنها تكسر من صحونك أكثر مما تغسله ، واستعملت أسبوعا على الأكثر ، ثم ألقيت فى ركن المهملات، لأن المرأة الضعيفة وجدت آلتها تنزع منها صبرها ومن وقتها الثمين أكثر مما تنزع من قشور ولب ، أمثال هذه الآلات الحديدية لا يقع تحت حصر ، فكلها مفيدة ، وكلها استعملت أياما ثم ألقيت فى مقبرة الاختراعات .

* * *

تصور فرح كولومبس وهو يرى شواطىء أمريكا ، ثم بعملية حسابية بسيطة اضربه فى فرح قائد رحلة «سيتروان»

السوداء والصفراء ، وهو يصل الى مرفإ الأبحار بعد قطع أدغال افريقيا أو جبال الهملايا ، الحاصل عندك من عملية الحساب ، هو ما شعرنا به جميعا ونحن نصل الى الطريق المعبدة ، جادة النجاة . فالنساء تولون بكل حلوقهم ، ونحن نتبادل التهانى : هذا يداعب عنق البغل البطل ، وذاك يطنب فى مدح السائق البدوى ويصفه بكل أوصاف حاتم طى وعنترة بنى عبس .

وصلنا على الساعة السابعة والنصف الى بلدة حمام الأنف فودعت عبد الله وعميرة ، وشكرتهما على ما لاقيته من حفاوة فى هذه النزهة اللطيفة الرائقة ، وتواعدنا على إعادتها فى الاسبوع المقبل ، وأنا أضمر إخلاف الوعد على أن نهيىء تحداءنا باعتناء أكثر ، وودعتهما وأنا أبكى بدموع الأسف على فراقهما، والسرور بنجاتى ووصولى الى بلدة بها محطة للقطار ، حتى أنى من فرحتى قبّلت الفتاة الشيطانية ، ودخلت مشتى حمام الأنف أفتش عن . . . مطعم . . .



مقدمة أم حواء

على نمط ولسان : طه حسين

قدم إلى ابنى وصديقى على الدوعاجى قصته هذه قبل الطبع ، ثم قدمت إلى بعد الطبع ، وقد أعجبت بقصته ، كما أعجبت بعنوانها (أم حواء) ، وربما أعجبنى عنوانها أكثر مما أعجبتنى القصة ، وأنا معجب بالعناوين أيما إعجاب !

قد لا يكون عنوان قصتنا هذه طريفا ، وقد لا يجرى به اللسان فى سهولة وقد لا يستسيغه السمع ! وقد يكون هذا العنوان غريبا ، وقد لا يخلو من بعض النفرة ! بل قد يكون غامضا بعض الشىء · ولكن توضيحه يسير ، ومع كل هذا ، فالعنوان صحيح ، وهو يختصر القصة كلها فالقصة هى قصة (أم حواء) ·

أمامك فى هذه القصة امرأتان ، أو على الأصح أمامك امرأة وابنتها ، أمامك امرأة عجوز تحب ابنتها أيما حب ، وتحنو عليها أيما حنو ، وأمامك هذا الزوج — زوج حواء — وقد اختار له صديقى المؤلف اسم (آدم) وقد أحسن اختيار هذا الاسم لهذا الزوج الذى ضاق ذرعا بحماته التى يدفعها حبها لابنتها أن تناصب نسيبها (آدم) العداء وتشدّ عنه مصاعب وعتاب لم يكن لتذليلها من سبيل ·

في هذه القصة نظرية تناقض نظرية العلامة «ديكرت» في موضوع الحماة • وتناقض أيضا نظرية بول «هرفيو» • كما تناقض نظريات الاغريقيين ــ بما فيهم من سقراط وأبقراط ــ مناقضة تامة • ولكنها مع ذلك صحيحة صادقة • نظرية تثبت خطر الحماة ، وان معاشرة الحماة لا تضمن خيرا ، لا لابنتها ولا لزوج ابنتها • وهذا يستلزم شقاء وآلاما أكثر مما يستلزمه موت الحماة حيث لا يدوم حزن ابنتها عليها أكثر من أسبوع أو أسبوعين على الاكثر ، وإذن فحياة الحماة لا تضمن الخير ، والانسانية مضطرة أن تضرع الى الله أن لا يبقى حماة على ظاهر الدنيا • وهي مضطرة الى هذا الدعاء أيما اضطرار !

طه حسين

طبق الأصل : علي الدوعاجي

نهاية أعزب

ــ 1 ــ (*)

• وقعت حوادث قصتنا قبل صدور قانون التمسك بقرون (• • • والمرغوب من حضرتكم إخلاء الجنة في ظرف ثمانية وأربعين ساعة وليست دعواكم من أن (من واجب الملاك وضع حاجز بين كرمة سكناكم وسانية التفاح) ليس من الوجاهة في شيء ، وكان من و جبكم أن لا تمسوا رزق غيركم بسوء • أما وقد فعلتم وشهد الشهود ممن يستشاق بشهادتهم أنهم رأوكم وأنتم تسرقون الغلال ليلا النيء منها والناضج بمعونة أفعى فقد حكمت المحكمة بأن تخلوا الكرمة كما وجدتموها يوم سكناكم من الأجل المذكور أعلاه •

تنبيه : اوصلت نسخة الى جارتكم (أم حواء) وابنتها لوقوعهما في مثل ما وقعتم فيه •

(المسجل : عزرائيل)

(*) ذكرت مجلة « الفكر » أن لهذه القصة خمسة فصول . أما الفصلان رقم (2 ــ 3) فقد تسلمناهما من الاستاذ توفيق بكار ــ مشكورا ــ نقلا عن مخطوطة المؤلف .

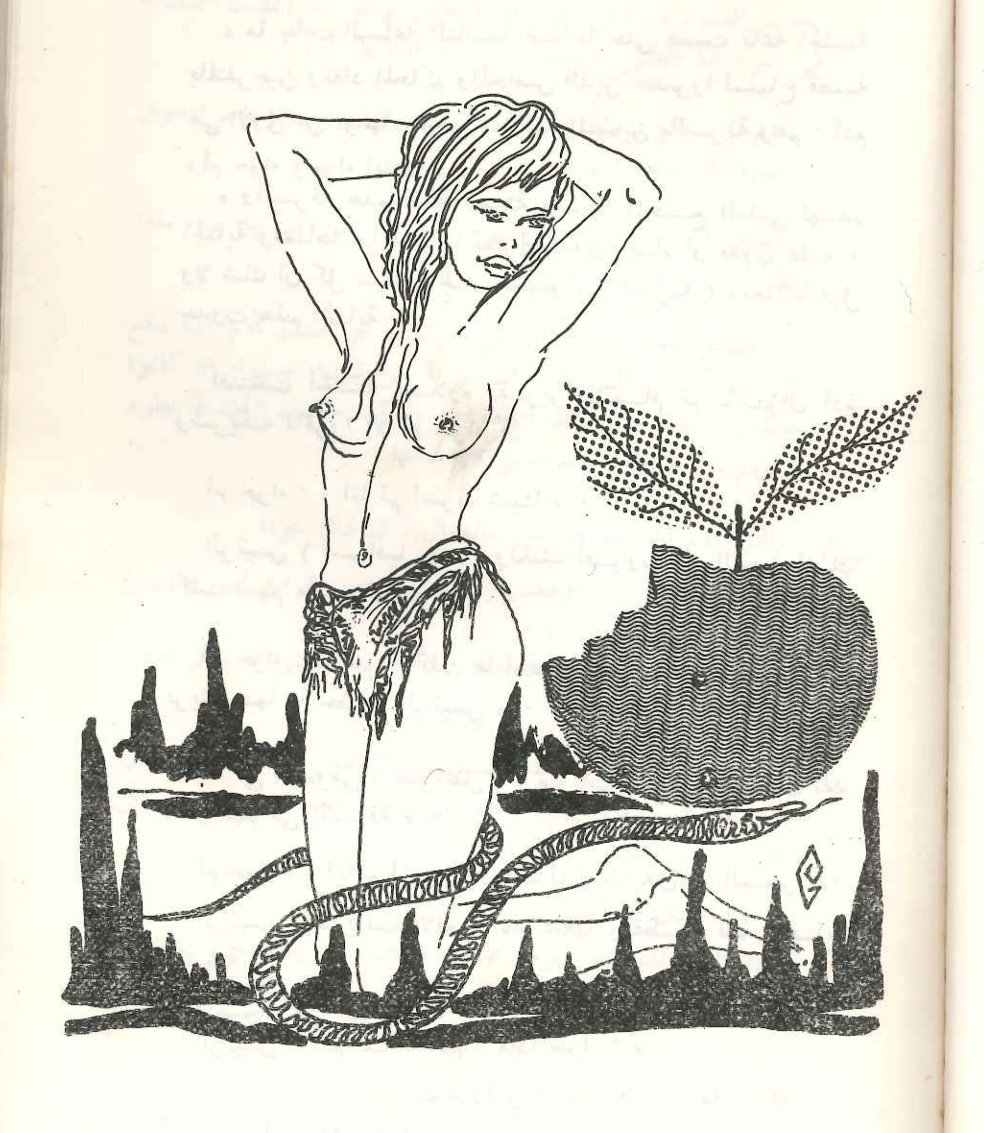
وقع هذا الاعلام في يد آدم وقوع الصاعقة فهو حديث عهد بالحياة وهو فى حيرة من أمره • أين يذهب بعد مضى الأجل المضروب ؟ أين يسكن ؟ ولكن بيوت الحارة عامرة ! لم يبق أمامه إلا أن ينزل الى الأرض • نعم ! ولم لا ؟ أليست الأرض أوسع بكثير من عدن المرصوصة بالملائكة رصا ، وهو لم يعد يطيق معاشرتهم بعد ما شهر أمر سرقته للغلال ؟ نعم • قد حلت الهجرة الى الأرض حيث لا يعرفون عنه شيئا ، الى الأرض مأوى الجناة أمثاله •

بينما هو فى تأملاته اذا بباب الكرمة يطرق خفيفا • من يكون الطارق يا ترى ؟ أهو محضر آخر أتى ببطاقة أخرى ؟ أم هم أعوان الشرطة الزبانية أتوا لاخراجه بالقوة ؟

وجم آدم لحراجة موقفه ذاك • وأخيرا بعد أن شجع نفسه بكوب (كوثر) ممزوج بقليل من الماء تقدم وفتح المزلاج واذا بالطارق ابنة جارته وشريكته فى الجناية تدخل عليه وهى منقبضة النفس تحمل فى يدها جريدة (صباح الجنة) وهى الجريدة اليومية الوحيدة التى كانت تطبع إذاك فى (عدن) •

أخذ الجريدة بدون أن يفوه بكلمة ، وبدون أن يرد سلام جارته اللطيفة • أجال فيها نظراته الملتهبة • وفى الصفحة الثانية تحت اعلانات (سيارات فردوس) فى المكان المخصص من الجريدة لقضايا البوليس الملائكى ، قرأ آدم ما يلى تحت عنوان (سرقة) :

« حكم أمس على المسمى آدم ، القاطن فى شارع سدرة المنتهى وعلى المسماة أم حواء وعلى حواء ابنتها ، القاطنتين فى نفس الشارع المتهمين بسرقة سانية التفاح الواقعة فى شرق الشارع نفسه » •



قال هذا والشرر يكاد يتطاير من عينيه • ثم انطوى على نفسه •

وقال : « وجع يقطع امعائى • هذا من جراء تفاحك يا غادرة ! » •

ـ : « وأنا أيضا ، يا آدم ! سنستأنس بهذا ، إنهم يسمونه مرض الغائط كما قاله القاضى • ولكن لا يجب أن نعمل شيئا فى الجنة إلا اذا ••• » •

ـ : « يا خائنة ! هنا فى الجنة ؟ أتريدين أن نعمل مخالفة جديدة ؟ ومن هذا النوع القذر يا خائنة ؟ إن هذا المرض قد أصابنا جزاء على جريمتك الاولى • وقد طردنا • هذا جزاء من يستمع إلى أقوال النساء ! إنهن لا يستحيين ولا ينبت على وجوههن شعر ، أمثالك » •

ـ : « أجهشت بالبكاء ، وكالعادة ألقت برأسها على صدر آدم • وانحصرت فيه حتى كادت تدخل فى ضلعته المعوجة • فلان لها قلبه ، وجعل يلحس دمعها عن جفونها ، والدمع يغلبه ، ويفيض على وجنتيها ، فيلحسه عن وجنتها الملتهبة بلسانه ، وقد نزلت على وجنتها دمعة كبيرة • ثم سقطت على شفتيها القرمزيتين • فمسح هذه الدمعة بشفتيه ، ومع أنه قد تطعم ملوحة هذا الماء ، فقد استعذبه • وما التصقت الأربع شفاه حتى أحس أن المسكينة حواء قد ارتخت بين يديه ، وكانت هذه أول قبلة وآخر قبلة فى الجنة •

ـ 2 ـ

كانت نجوم السماء تلمع لمعانا أعجب آدم كل الاعجاب اذ هو لم يعهد النجوم فى الجنة • لم ير آدم نجوما ولا ظلاما قبل اليوم • ولم يكن ثمة ليل مظلم فى الجنة • كانت الجنة كلها نورا • ولقد طرب آدم لظلام الليل على الارض كل الطرب •

ولقد أعجبته هذه النجوم التى تشبه دموع حواء ، والبدر ! ! إنه ليشبه تلك الدمعة اللامعة على شفتى حواء • وكأنه تذكر القبلة ، لانه قام من مرقده وأخذ يفتش عن حواء برفق حتى لا تستيقظ أمها اللعينة • وأخيرا عثر عليها جالسة خلف « العشة » التى ابتناها لها آدم فى صباح ذلك اليوم • اقترب منها آدم ثم جذبها من يدها قائلا :

ـ ما تنظرين ؟••

ـ تلك البقع البيضاء حول تلك الدائرة المشرقة ، أنا لم أرها قبل اليوم • كانت الجنة مضاءة ليلا ونهارا بطريقة واحدة ، فما للدنيا تغير حالها بعد ساعات ؟ لقد كان منذ ست ساعات قرص آخر يضىء الكون (؟ ؟) فما بال ذلك القرص المضىء قد ذهب وحل محله هذا الذى ـ وان كان جميلا ـ لكنه لا يضىء كالآخر •

ـ أى نعم ، حواء ، أنا فى حيرة وفى خوف اذ لو دام هذا عوض الآخر لما أمكن لى أن أبتنى عندما أستيقظ غدا كوخا آخر لى •

ـ أستبنى كوخا لك ! وهذا كوخنا يسعك لو أحببت أن تسكن معنا •

ـ حواء ! أتذكرين يوم خروجنا ••••

ـ أى نعم ، آدم •

ـ يوم أن مسحت لك قطرات الماء النازلة من عينيك •

ـ أى نعم ، آدم ، أذكر ••••

ـ هلا أنزلت شيئا منها الآن لأمسحه لك •

ـ هي نازلة الآن فامسحها (بخبث) •

ـ إننى لا أراها •

ـ النور لا يكفى الآن لرؤيتها • ولكنى أحسها هنا (وهى تضع يدها على شفتها السفلى) •

كان آدم يعلم أنها تكذب • ولكنه لم ير ان يبخسها فأخذ يلحس شفتها بلسانه ، وكأنه وجد لذة فى لحسه شفتها فأخذ يمتصها مصا ، وكانت هى بدورها ترد له الفعل بمثله ، وهى متكئة على مرفق يديها • وكانت يده تحت عنقها • أزاح آدم برأسه لكى لا يمنع نور البدر الضئيل أن ينير وجهها فوجده أجمل مما كان عليه نهارا • قال ـ وهو لا ينظر الا لشفتيها وأنفها الاقنى الجذاب وعينيها ـ كلمته الخالدة التى ما زال يرددها أحفاد أحفاده فى مثل هذا الموقف :

« آه لو دام هذا !•• » •

كانت حواء تتصنع البكاء دائما لكى يمسح آدم دموعها بلسانه • وكانت تجد لذة فى إعادة العملية كلما أمكن لها ذلك •

وفى يوم كانت أم حواء تشرب الماء من « فلتة » كانت قرب بيتها ، وكانت ابنتها بجانبها تسرح شعر رأسها بأصابعها ، نظرت العجوز لسطح الماء فرأت صورة وجهها المجعد لأول مرة : فلم تجده يشبه وجه ابنتها النضير فى شيء ولا حتى وجه آدم ، فبكت اذ ذاك العجوز المسكينة وبكت حتى فطنت ابنتها لبكائها ، فما أسرع أن ذهبت تستدعى آدم الذى كان جالسا فوق ربوة جادا فى سلخ جلد ضبع قتله البارحة • ونادته بصوت يذوب رقة :

ـ آدم !••• أمى يسيل الماء من عينيها هيا آدم امسحه••• لها •

ـ 3 ـ

تعود آدم سكنى الارض وتعود صيد الوحوش ايضا • لكن شيئا واحدا يقلق آدم أكثر من غيره من الاشياء هو سقوط المطر فى بعض الاحيان ، وهجير الشمس فى أحيان أخرى ، فلماذا هذا التبديل من الضد الى الضد ! ثم ما هذه الدمدمة التى يسمعها كلما امطرته السماء بوابلها اوطلها ؟ إنه لا يشبه هدير الجمل ولا أصوات الحيوانات الاخرى •• من تراه يعبث لإقلاق الناس بهذا الصوت ؟••

وكلما تصور آدم صاحب هذا الصوت تراه يجرى نحو حواء التى تكون بالطبع فى بيتها فى ذلك الحين •

مصادر القصص

عنوان القصة	مكان وتاريخ النشر
1) كنز الفقراء	العالم الأدبي اوت 1935
2) جارتي	نشرية التطور الاجتماعي 1936
3) في شاطئ حمام الأنف	جريدة السرور سبتمبر 1936
4) المصباح المظلم	القلم الحر 26 جوان 1938
5) راعي النجوم	الباحث جوان 1944
6) احلام حدى	الباحث جويلية 1944
7) الركن النير	الثريا نوفمبر 1944
8) امن تذكر جيران بذي سلم	الباحث فيفري 1945
9) مجرم رغم انفه	الأسبوع 24 ديسمبر 1945
10) قتلت غالية	الأسبوع 7 جانفي 1946
11) موت العم باخير	الأسبوع 21 جانفي 1946
12) سهرت منه الليالي	الأسبوع 11 مارس 1946
13) سر الغرفة السابعة	الأسبوع 26 ماي 1946
14) نزهة رائقة	الباحث جوان - جويلية 1946
15) أم حواء	الفكر جويلية 1959